التنقيب عن الماضى

أو

الكشف عن الحضارات القديمة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

نشر هـــذا الكتـــاب بالاشـــتراك

مـــع

مؤســـسة فرانكلين للطباعة والنشر

القـــاهرة ـ نيويورك

نوفمبر سنة ١٩٦٠

استيلا فريدمان

التنقيب عن الماضي

أو

الكشف عن الحضارات القديمة

ترجمة

أحمد محمد عيسى

تقديم

سامي الكيالي

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق :

This is an authorized translation of "DIGGING INTO YESTERDAY" by Estelle Friedman.

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلفة :

استيله فريدمان : تخرجت فى قسم الفلسفة بجامعة ڤاندربلت . وبعد أن انتهت من دراستها ، اجتذبها اهتمامها الشديد بعلم الآثار إلى دراسة كل ما استطاعت يداها أن تصل إليه عن الموضوع . وهى تقول إنها تأمل أن يستثير كتابها فى نفوس الأطفال اهتماماً مماثلا بالآثار ودراستها .

وإلى جانب التأليف ، تشرف السيدة استيله فريدمان على برامج التخطيط الخاصة بإحدى مؤسسات الرأى العام فى ناشڤيل ، بولاية تنيسى ، حيث تقيم مع زوجها وابنتيهما .

المترجم :

الأستاذ أحمد محمد عيسى : أمين المكتبة العامة لجامعة القاهرة . الحاصل على ليسانس الآداب ، قسم التاريخ

من كلية الآداب ، بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٠ ، وعلى دبلوم فى الآثار الإسلامية من معهد الآثار بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٣ . أوفد من قبل الجامعة لدراسة شئون المكتبات الجامعية بإنجلترا سنة ١٩٤٩ ؛ قام بأعمال علمية بمتحف الحضارة ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، كما اشترك فى الأعمال العلمية التى قامت بها جامعة الاسكندرية ، بالاشتراك مع المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان فى دير سانت كاترين . ترجم كتب : « الفنون الإسلامية » و « رصيد البنك الكبير » و « القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط » ، وكلها كتب نشرتها هذه المؤسسة . يتولى سكرتيرية مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وهو عضو بمجلس إدارتها .

صاحب المقدمة :

الأستاذ سامى الكيالى : الأديب العربى المعروف بنزعاته التجديدية ، وآرائه الحرة . عضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . صاحب

مجلة « الحديث » . آخر مؤلفاته : « الأدب العربي المعاصر فى سوريا » و « يوميات عربي فى أمريكا » و « أمين الريحانى » و « ولى الدين يكن » و « سيف الدولة وعصر الحمدانيين » . وهو عضو فى جمعية العاديات بحلب ، والجمعية التاريخية المصرية .

مصمم الغلاف :

محيي الدين أبو ذكرى : خريج كلية الفنون التطبيقية : حاصل على دبلوم المعهد العالى للتربية : مدرس بالمدارس الثانوية . صمم أكثر من غلاف لكتب المؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

المقـــــدمة

ما قصة هذا الإنسان الذى عاش مع فجر التاريخ ؟

كيف كانت حياته قبل آلاف السنين ؟

ما عاداته وتقاليده ؟

ما طقوسه ومعتقداته ؟

هل كان ينعم ببلهنية العيش ورغد الحياة أو كان يصارع البؤس والشقاء ؟

هل عرف ألوان الترف التى ننعم بمباهجها اليوم ؟

ما مدى صلته بعالم المعرفة ؟

هل كانت له خصائص حضارة ؟

لقد ظل علماء التاريخ يتخبطون فى رواية سير الأمم المنقرضة التى طواها التاريخ .. رواية أخبارها وقصصها وحكاياتها وأساطيرها .. منها ما يقترب من ظلال الحقيقة والواقع ، ومنها ما تقوم مادته على الحدس والتخمين ، وما زالوا إلى أن بدأ « علم الآثار » يفرض وجوده ويشق

بطن الأرض بمعاوله وفؤوسه ، يريد الحقيقة عارية من كل لبس . . الحقيقة التى تطمئن نزعات العالم الذى يركض وراءها مهما تكلف فى سبيلها من جهد وكد ، ومهما بذل من مال ، ومهما سكب على حساب عافيته من عرق ودموع .

عاش « الأثريون » عمرهم مع الماضى ، مع تاريخه وقصصه ، مع علومه وآدابه ، مع فلسفته وأساطيره ، حتى إذا أنسوا فى بقعة من بقاع العالم بصيص أمل من حضارة أمة ما تزال آثارها مدفونة تحت التراب ، شدّوا إليها الرحال ، أكانت تلك البقاع صحراوات محرقة ، أم قمم جبال وعرة ، فما يكادون يحطون رحالهم بعد سير طويل وعناء شديد حتى تبدأ حفرياتهم ؟

أى عمل شاق ؟

قد يطول معهم الحفر والتنقيب ، وقد تطويهم الأيام بعد سنوات طوال دون أن يصلوا إلى بارقة أمل أو بصيص من نور ؟

ولا تخلو الساحة من أمناء للفكرة ، ، والركوض وراء هذا الأمل المدفون فى التراب .

وسرعان ما يتقدم إلى نفس العمل الشاق أحد تلامذتهم الأوفياء ، أو أحد زملائهم الأصفياء .

وما هى إلا سنوات قد تقصر أو تطول حتى ينكشف الغطاء عن السر المخبأ ، فيعثروا على حجرة ، أو عمود ، أو آثار هيكل ، أو ناووس ، أو قبر ، أو نقوش كتابية ، أو قطعة حلى ، أو لباس ، أو بقايا عظام ، أو غير ذلك مما يرمز بوضوح إلى حياة شعب عاش سنوات طويلات فى تلك البقعة من الأرض دون أن نعرف عن واقع حياته أى شىء ملموس .

هنا يتبدد الكثير من الآراء التى سردها المؤرخون الذين يعاودون كتابة فصول التاريخ من جديد على ضوء ما كشف عنه علماء الآثار الذين يطلعوننا على حياة شعوب عاشت قبل آلاف السنين ، وكان لها أثرها فى مجرى التاريخ .

فقد دلتنا الحفريات التى قام بها الأثريون منذ بداية القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن العشرين على جوانب

فريدة من جذور حضارات كانت مطمورة ، لولا مغامرات الأفذاذ منهم ، والجهود التى بذلوها ، والأموال التى نثروها ، والضحايا التى قدموها ، لظلت مخبوءة تحت التراب ، ولظلت بحوث المؤرخين هى الحدس والتخمين ، ولا شىء إلا الحدس والتخبط والتخمين .

ولا أريد فى تقدمتى لهـذا الكتاب أن أتحدث عن الجهود الفذة التى قام بها علماء الآثار وما أدوه من خدمات جلّى لتاريخ البشرية ؛ فهذا ما لا تفوت معرفته كل مثقف . وقد أشارت إليه السيدة استيله فريدمان مؤلفة هذا الكتاب التى اجتذبها هذا العلم إلى رحابه بعد أن كانت مشدودة إلى رحاب الفلسفة فى بداية حياتها الجامعية .

ومن يدرى ! فربما كانت دراستها لفلسـفة الإغريق وتأملها هياكل آلهة الإغريق التى تنبض بالحس والحياة والجمال — ربما كانت تلك الدراسة هى التى قادتها إلى علم الآثار ، فدرسته بشوق وشغف ، حتى إذا امتلأت نفسها من تلك الروائع — مما قصه عليها علماء الآثار من سير الحضارات المطمورة — أحبت هى أيضاً أن تطرف القراء

بهذا الفيض من غمار المعرفة ، فكان لنا كتابها الذى نحن بصدده .

وهو كتاب قيم يروى قصص حضـــارات معروفة وحضارات مجهولة ؛ حضارات أمم عريقة ، وخصائص أمم بدائية تعيش مع الخرافات والأوثان .

فى سردها ما بذله الأثريون من الحفريات عن حضارة الإغريق والرومان وقدماء المصريين وأور الكلدانيين أعطتنا جوانب جديدة ، لا عن مباهج تلك الحضارات التى كانت مغمورة تحت الركام فحسب ، بل عن جهد الإنسان التواق إلى المعرفة ، عن صراع العلماء ومعاناتهم المتاعب والأهوال فى سبيل الكشف عن الحقيقة .

فإنك تقرأ فصول هذا الكتاب وكأنك تقرأ قصة .

أى قصة ؟

قصة المغامرين فى سبيل المعرفة . . وهى من الروعة والإثارة لذهن القارئ بمكان عظيم .

فمن قصة « عرائس إله المطر » ــ قصص هنود المايا

فى جواتيمالا وجنوب المكسيك الذين كانوا يقدمون الضحايا من العرائس لكبير آلهتهم الذى يصورونه جسم ثعبان وريش طائر وأسنان نمر ، إلى قصة « وادى الملوك » إلى قصة وحش اللابيرنت — أريد أسطورة المنطورس الذى يتغذى من لحوم البشر . الوحش الخرافى الذى قالوا إن نصفه إنسان ونصفه ثور ، والذى كان يعيش فى جزيرة كريت — لقد قادت هذه الأسطورة عالم الآثار للكشف عن حضارة ماكانت تخطر على بال إنسان .

إلى قصة الطوفان فى التوراة والتى كانت الانطلاقة الأولى لعلماء الآثار أن يكشفوا عن حضارة أور الكلدانيين وحضارة السومريين التى ثبت للعلماء أن حضارتنا ما هى إلا استمرار لحضارة شعب سومر القديم .

إلى قصة كنز القلعة — أريد الحفريات التى جرت فى بلاد بيرو فوق جبال الأنديز الشاهقة الارتفاع والتى كشفت عن حضارة شعب الانكا الذى كان يملك قدراً كبيراً من الذهب لا يمكن تصوره — حسبنا القول إن صحاف موائدهم وكؤوسهم صنعت من هذا المعدن النفيس الذى عرف عند

الهنود باسم « دموع الشمس الباكية » . . تلك الإمبراطورة التى شاهدت الأثريين حين رأوا جدران قصورهم وبيوتهم تصنع من كتل حجرية ضخمة تزيد الحجرة الواحدة أحياناً على أربعة عشر طنا .

لقد استطاعت المؤلفة أن تروى قصة هذه الحفريات — أريد الكشف عن الحضارات القديمة بكثير من الدقة — دقة العالم الأمين على حقائق التاريخ فى أسلوب شائق يشعر القارئ أنه يقرأ قصة محبوكة الفصول ذات حوادث مثيرة تنقلك دائما إلى عالم مجهول ، سرعان ما تتبدد غوامضه بآفاق مشرقة الجوانب :

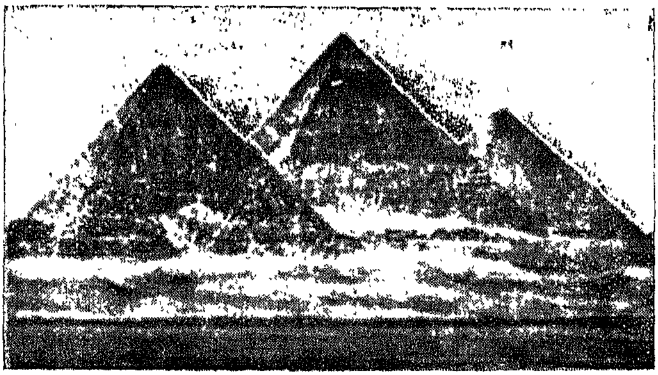
ولا أبالغ حين أقول إننى قرأت هذا الكتاب — وقلما تستهوينى كتب الأثريين — قرأته بكثير من المتعة واللذة ، ولا أحب أن أسترسل فى الحديث عنه أكثر من هذا ، فحسبى الإلماع لأترك للقارئ الاستمتاع بما استمتعت به ، وأن يعيش فى تلك الآفاق المثيرة التى عاشتها المؤلفة — وهى آفاق ، إلى ما يكتنفها من أتربة وغبار وحفريات وجهد وتعب وعرق ودموع ، سرعان ما تتكشف عن مظاهر

حياة مترفة تفيض بالجمال والإشراق وشتى ألوان الفنون .

ولا يسعنى فى ختام هذه المقدمة إلا أن أشيد بالجهد الذى بذله الأستاذ أحمد محمد عيسى فى نقله هذا الكتاب إلى العربية، فأضفى عليه بدقة ترجمته وحسن صياغته ما جعله من الكتب التى تحتل مكانتها بين كتب الأثريات القيمة .

وما أحوج المكتبة العربية إلى ترجمة ما يكتبه المنصفون من علماء الغرب عن حضارات الشرق وكنوزه .

القاهرة : نوفمبر سنة ١٩٦٠ سامى الكيالى



(شكل ١)

الفصل الأول

الأدلة المطمورة

منذ أكثر من سبعة آلاف سنة ، نقشت إحدى القبائل الإفريقية جدولا للضرب على عظمة تيتل .

وخلال العصر الحجرى ، كانت توجد أربعة مصانع لعمل الفؤوس الحجرية ، فى إقليم هو ما نسميه الآن « إنجلترا » .

ومنذ خمسة آلاف سنة ، استخدمت النساء فى مصر من أدوات التجميل ما تستخدمه اليوم كواكب هوليوود .

ومن أربعة آلاف سنة ، كان الكريتيون يلعبون لعبة تشبه « السيجة » ، وكانت عندهم حفلات للألعاب الرياضية ومقاهٍ يتناولون فيها الوجبات الخفيفة .

ولعب الإغريق الهوكى منذ ألفين وخمسمائة سنة .

وتجنب الرومان فى بومبي مشاكل الغسل والكيّ بلبس شملات من نسيج لا يتكسر .

كل هؤلاء الناس : من الإفريقيين فى عصر ما قبل التاريخ ، إلى الرومان ، عاشوا بعيدا عنا ، سواء فى المكان والزمان . ومع ذلك فإن ما نعرفه عنهم قد حدث فعلا .

ولكن كيف يمكننا أن نعلم بأحداث الحياة اليومية عند هؤلاء الناس الذين عاشوا فى تلك الأزمان البعيدة ؟ ثم من أين لنا بالمعلومات الغزيرة عن ماضى الجنس البشرى ؟

هنا يدخل علم عجيب هو علم الآثار ، الذى يعنى بالدراسة العلمية لبقايا الحضارات القديمة .

وعالم الآثار ، يشبه كثيرا المحقق ، الذى يأتى إلى مكان الجريمة بعد وقوعها . وعليه أن يأخذ ما يجده من الأدلة أيا كانت ليحل المشكلة التى أمامه . فإذا كانت الجريمة سرقة ، فعلى المحقق أن يبحث عن بصمات الأصابع ليتأكد من شخصية السارق . وإذا لم يجد بصمات أصابع ، فقد يجد آثار أقدام يعرف منها شيئاً عن جسم المجرم . وقد يساعده عثوره على قطعة من « قماش » أو شعرة صغيرة ، على معرفة الكثير من مظهر السارق وهندامه . وقد توجد آثار عجلات فيعينه هذا على اقتفاء أثر العربة التى استخدمت فى السرقة .

غير أن عالم الآثار لا يحاول كشف الجرائم ، وإنما يحاول تجميع أجزاء « قصة الإنسانية » بعضها إلى جانب بعض . وقد توجد البراهين التى يبحث عنها فى عدد من الأوانى ، أو النقوش ، أو المحاريث ، أو رءوس السهام ،

أو الخرز ، أو المبانى ، أو غيرها . ودربته على هذه الأشياء كدربة المحقق فى اقتفاء أثر الجريمة ، ولهذا فإن الأثرى يفيد كثيراً من العلم إذا ظفرت يده بهذه الأدلة البسيطة .

وكتب التاريخ التى تكتب عن أمريكا لا تتعمق فى الماضى إلا عدداً ضئيلا من مئات السنين ، فى حين تشتمل كتب أجزاء أخرى من العالم ، تواريخ تصل إلى ألف سنة أو آلاف السنين ، رغم أن الناس عاشوا على هذه الأرض منذ مئات الألوف من السنين . وعلم الآثار يحاول أن يعرف كل ما يمكن معرفته عن حياة أقدم الناس حضارة فى جميع أنحاء العالم . فيبحث عن الفن عند هؤلاء الناس ، وعن منازلهم ، ومبانيهم ، وأدواتهم ، وأسلحتهم ، ودياناتهم ، وألعابهم ، وحكوماتهم ، ولغاتهم ؛ وفى محاولة معرفة كل هذه الأشياء إكمال للنقص فى معلوماتنا عن الحياة فى الماضى البعيد .

ونتيجة لبحوث علماء الآثار سيكون فى مقدورنا يوما ما أن نقرأ فى كتب التاريخ كل ما يتعلق بالأقدمين

فى كثير من اليسر ، كما نفعل الآن فى قراءة كل ما يتعلق بتاريخنا المعاصر .

والمحقق وهو يؤدى وظيفته ، يستعين بهؤلاء الذين يعملون بعيدا عن مسرح الجريمة من أمثال رجال البوليس ، فيمكنه أن يسأل هؤلاء عن تحديد نوع البندقية التى انطلقت منها الرصاصة ، كما يمكنه أن يسأل عن أوجه الشبه والاختلاف بين عبارتين من الخط المكتوب ، أو أن يختبر فى إدارة البوليس قطعة من النسيج أو الورق أو المخلفات ، اختبارا ميكروسكوبيا .

كذلك عالم الآثار ، يستعين بالمعمل أو بالعلماء الذين قاموا ببحوث خاصة على النباتات أو الحيوانات أو غيرها من الأشياء . فقد يبحث مساعدوه عن حقيقة عظمة حيوان لم يعد له وجود ، أو يؤرخون له قطعة دقيقة من الفخار . وقد يطلب إليهم قراءة كتابة أو نقش بلغة غريبة . ولا يتعرض لدراسة هذه المخلفات أو هذه الأدلة سوى الأشخاص الذين يستطيعون القيام بهذا العمل على خير وجه .

وقد يبدو أحياناً أن عمل عالم الآثار أسهل من عمل المحقق ؛ إذ لم يخطر على بال الكريتيين أو المصريين القدماء مثلا ، أنهم إنما يتركون لبعض الناس براهين ليكتشفوها بعدهم بآلاف السنين . ولو أن ذلك خطر ببالهم لما اكترثوا له . أما مرتكب الجريمة فإنه يحاول دائما وبطبيعة الحال ألا يترك أى دليل بعده — ويحاول جاهداً أن يضلل البوليس بكل ما يستطيع من أساليب التعمية .

ويتمتع محقق الجريمة بميزة لا يتمتع بها عالم الآثار ، ذلك أن المحقق يقصد فى التو واللحظة إلى مسرح الجريمة وقت وقوعها ، بينما يأتى عالم الآثار إلى مسرح الحضارة القديمة بعد اندثار أصحابها بآلاف السنين .

وغالباً ما يجد المحقق معظم أدلته فى البقعة التى حدثت بها الجريمة . أما عالم الآثار فإنه يحتاج دائما للتنقيب عن أدلته . إنه لا يستطيع أن يسير فى بحثه بدون معول أو جاروف ، لأن معظم الأشياء التى يبحث عنها دفينة تحت سطح الأرض منذ قرون .

وترجع أسباب ذلك إلى أن كثيراً من القدماء قد دفنوا

معهم فى قبورهم معظم كنوزهم . والقبور بطبيعة الحال موجودة تحت سطح الأرض . ثم إن هنالك مدنا طمرت بأكملها تحت الأرض ، وعندئذ يتحتم على عالم الآثار أن يقوم بعمليات حفر على مستوى عميق للكشف عنها .

ومن الحقائق الطريفة أن الناس اختاروا البناء فى الموضع الواحد أكثر من مرة . فقد كان من العسير أن يخلى الموقع من الأنقاض المتداعية لما يتكلفه ذلك من المال والجهد الكثيرين . وكل ما كان يحدث هو أن تمهد الأرض بحيث تصلح لإقامة البناء الجديد . على هذا فإن الأساس المدفون فى الأرض ربما بقى هكذا دون أن تمسه يد أى من علماء الآثار لسنين طويلة فى المستقبل .

ولما كانت الحضارات القديمة لا تعنى – عنايتنا اليوم – بشئون النظافة والصحة العامة ، فإن بقاء الفضلات وتراكم الأنقاض التى تتجمع ، ترفع هى الأخرى من مستوى سطح الأرض . وهذا الذى يحدث بين وقت وآخر ينتهى أيضاً بأن تطمر مدن بأكملها .

وتساعد الطبيعة دائما على عملية الطمر هذه ، ففى

قلب لندن ، بانجلترا ، ظهرت ، منذ عدة سنوات ، بقايا معسكر رومانى ؛ ولكن لم يمض عام على ذلك حتى اختفت هذه البقايا تماما تحت شجيرات الأزهار البرية المتزاحمة . وفى البلاد الحارة ينمو النبات بطبيعة الحال أسرع بكثير مما ينمو انجلترا ؛ فالأطلال بوسط وجنوب أمريكا غطتها كلية غابات الكروم المتشابكة والأشجار الضخمة . وامتداد جذورها القوية بين الأحجار أبعدت جدرانا بأسرها عن أماكنها . وبعد سنوات عديدة من نمو هذه الأشجار يتحول كل ما يمكن رؤيته من المدن القديمة إلى رواب أو تلال تغطيها الأتربة والنباتات .

وفى الشرق الأوسط ترتفع هذه الروابى أو التلال إلى مائة قدم فوق مستوى السهل ، وتشبه هذه التلال طبقات كعكة ضخمة يغطى سطحها الأتربة والنباتات المختلفة . وتكون الطبقة العليا فى هذا التل هى المبانى أو المنازل التى بنيت أخيراً ، شأن طبقات الكعكة ؛ فإن أعلاها آخرها تكوينا . وتعتبر كل طبقة تالية أقدم من حيث الزمن ، وتكون أسفل الطبقات هى تلك التى بناها أول من بنى فى هذه

البقعة . وقد تحتوى شريحة واحدة ، من هذه الكعكة على ثمانى أو تسع طبقات .

من هذا يتضح لنا أن عمل عالم الآثار شاق جداً . وقد يستخدم الأثرى رجالا عديدين فى عملية الحفر ، إلا أنه بمجرد ظهور دليل ما ، فإنه يتولى هو الإشراف بنفسه ؛ فقد يكون هذا الدليل هاشاً جداً ، وقد يكون مكسوراً إلى مئات القطع . وعندئذ فواجبه اتخاذ احتياطات كبيرة لمنع ما عساه أن يصيب ما تبقى من الدليل المكتشف .

ومن الراجح أن يستمر الحفر بعد ذلك بوساطة سكين صغيرة . وقد ترفع القاذورات عن شىء رقيق باحتراس بوساطة فرشاة من شعر الجمل ، وربما يحتاج رفعها إلى نفخة رقيقة فقط . ويجب أن يجتهد فى المحافظة على كل قطعة من هذه الدلائل . فتعمل لها صور ، وتكتب عنها ملاحظات ، وتدون مقاييسها . كل هذا يجب أن يحدث قبل أن تمس أو تحرك من مكانها الأصلى .

ونرى هنا أنه يتحتم على عالم الآثار — مثل محقق الجريمة تماماً — أن يضع أمامه كل البراهين ونتائج المعمل

معاً . وبدراسة الأشياء المكتشفة مع الصور والملاحظات والمقاييس ، يمكنه أن يعطى العالم صورة عن عدد من الناس الذين عاشوا فى الماضى المجهول ؛ وتكون الجهود هى ثمرة مهارته العلمية وعمله الشاق .

ومن الغريب أننا قد نجد أحياناً أن الأثرى والمحقق قد يظفران بدليل هام جداً من أشياء ربما لا تمتّ للعلم بصلة . فمثلا يستمع المحقق بعناية كبيرة إلى عدد ضخم من شهود الجريمة ؛ الذين قد تكون أقوال بعضهم مجرد ثرثرات تافهة ، ومع ذلك فليس ببعيد أن يلتقط من هذه الثرثرات خيطاً واحداً من الحقيقة ؛ أو حقيقة بأكملها تنفعه كبرهان .

كذلك يستمع عالم الآثار إلى ثرثرة القرون الماضية والخرافات القديمة وأساطير الناس ، التى توارثها جيل عن جيل . ويحدث أن يكون الناس الذين رووا هذه الأساطير قد غيروا فيها خلال السنين أو أضافوا إليها مرات ومرات . ومن الطريف أن يبقى جوهر الحقيقة فى هذه الأساطير هو البرهان الذى يحتاجون إليه لإزاحة الستار عن كشف مثير .

والروايات التى تحكى عن هذه الاكتشافات المثيرة ، تكاد تملأ رفوف مكتبة بتمامها . وهذا الكتاب الصغير الذى بين يديك يستطيع أن يقفز بك من مكان لآخر حول العالم وخلال عدد من القرون ، ليعطيك القليل من هذه القصص العذبة المثيرة — قصص بعض الحضارات القديمة ، وكيف أحييت من العدم ، وبعثت من المجهول على يد عالم الآثار الذى أصر على البحث عن الحقائق المختبئة فى ثنايا الأساطير :

الفصـــل الثانى

عرائس إله المطر

أيمكنك أن تتصور ما يمكن أن تكون عليه الحال ، لو حدث فى يوم من الأيام ، ولسبب ما غامض ، أن اختفى أهل مدينة بأسرها فجأة وإلى الأبد ؟ أيمكنك أن تتصور أن مائة وخمسين ألف نسمة يهجرون منازلهم وحقولهم ومدارسهم ومعابدهم وأعمالهم ، فى وقت واحد ، ويذهبون إلى غابة بعيدة لبناء مدينة جديدة ؟ .

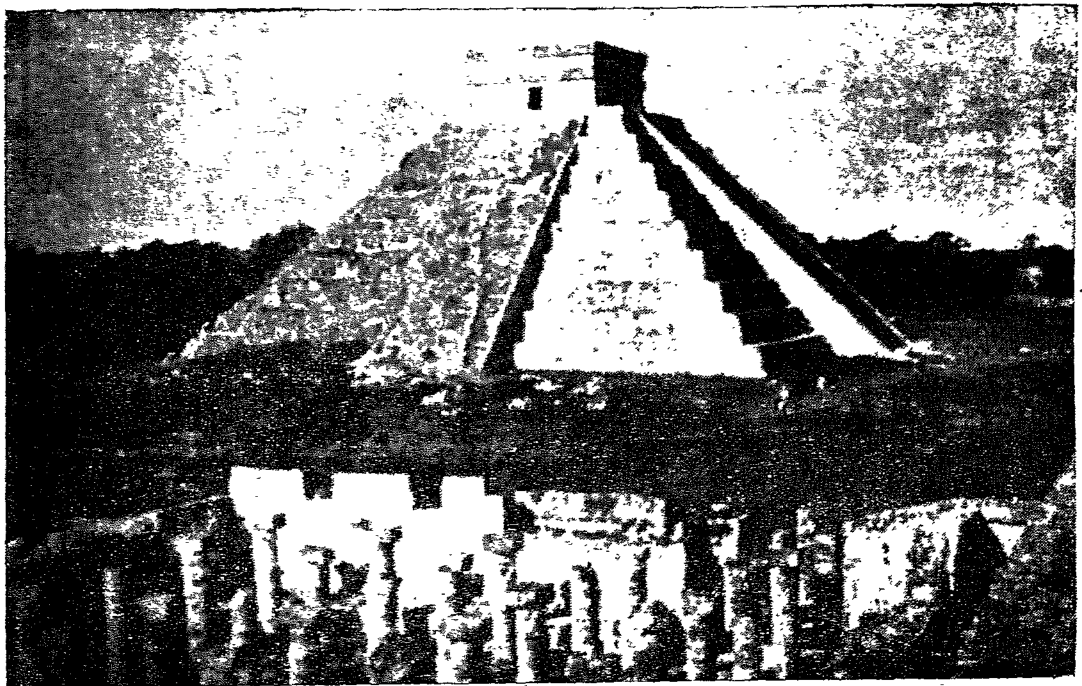
أفلا يبدو تصور هذا الأمر فى ذاته ، غريبا للغاية ؟ ربما لا يحدث مثل هذا على الإطلاق فى مدينة من مدننا ، ولكنه حدث دون شك منذ عدة قرون فى بعض المدن الكبيرة فى جواتيمالا وجنوب المكسيك .

إن المدن الكبيرة فى تلك الجهات بناها هنود المايا ، غير أن الناس فجأة ، ولسبب غريب قطعا ، حملوا جميع متاعهم وانتقلوا شمالا إلى الأدغال ، دون أن يعرف أحد لذلك سببا حتى اليوم .

قد يكون سبب ذلك مرض مخيف حملهم على ترك منازلهم المريحة ، وشوارعهم النظيفة ، ومبانيهم المألوفة ؛ وقد يكون السبب اجتياح الجراد لمساكنهم ، أو تغير الجو أو فساد الزرع . ولكن كل هذه الأفكار ضروب من الحدس والتخمين .

ظلت جماعات هنود المايا تتنقل سنوات كثيرة بين الأدغال ، إلى أن استقرت جماعة منهم فى الشمال ، حيث الدولة الصغيرة المسماة يوكتان ؛ وبنوا هناك مدينة جميلة تدعى تشيشين إتزا ، بعد ميلاد المسيح بعدة قرون . وظلت هـــذه الجماعة هناك ، حتى أغارت عليها بعض القبائل الأخرى عام ١٢٠٠ م فهربت من المدينة .

وشيئاً فشيئاً أخذت الكروم البرية المدارية تنمو فوق جدران تشيشين إتزا ، وتطوف الببغاوات الملونة بمبانيها المهجورة ، وتعدو « النسانيس » صارخة فى شوارعها الخالية : وبعد زمان غزا الإسبان يوكتان عام ١٥٤١ م ، حين لم يعد هناك من مدينة هنود المايا سوى خرائب يخيم عليها الصمت وسط الأدغال .



(شكل ٢) أعمدة معبد المحاربين فى تشيشين إتزا

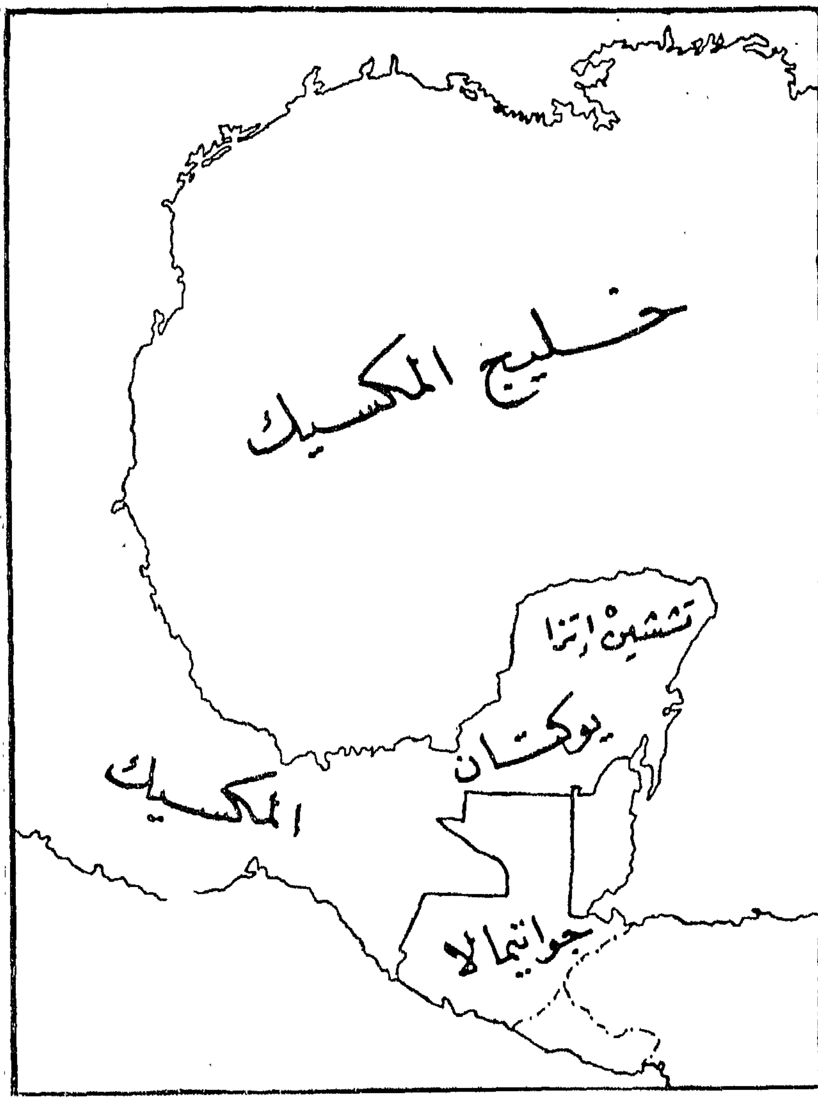
وهذه المدينة الخربة لها قصة غريبة ، فلم يكن ليعرفها العالم قط لولا رجلان : أحدهما إسبانى كتب القصة ، والآخر أمريكى صدقها وآمن بها .

والإسبانى هو أسقف يوكتان واسمه ديجو دى لاندا . أما وظيفته فهى أن يستأصل من نفوس هنود المايا العقائد الدينية التى ورثوها عن أجدادهم منذ قرون .

كان كبير آلهة المايا هو كوكولكان : جسمه جسم ثعبان ، وريشه ريش طائر ، وأسنانه أسنان نمر أمريكى . ولهذا الإله تماثيـــل حجرية تصوره وبين فكيه رأس آدمى .

ولم يجد الأسقف — وهو مسيحى متدين — غضاضة فى تخريب كل ما يتعلق بهذا الإله القاسى الثعبان الذى يكسوه الريش ، فأمر بنهب كنوز معابد المايا وحرق كتبهم المقدسة .

لكن بالرغم من نفور الأسقف من عقائد المايا الهمجية ، فإنه لم يخف إعجابه بقصصهم الغريبة التى سمعها من أشياخهم



(شكل ٣) المكسيك . . مركز حضارى بين الأمريكتين

الذين بنى أجدادهم مدينة تشيشين إتزا . والواقع أنه أعجب بها كثيراً لدرجة حملته على أن يكتبها جميعها .

وبقيت كتب هذا الأسقف حبيسة إحدى المكتبات بإسبانيا ، لم يقرأها من بعده أحد مدة ثلاثمائة سنة . وحينما اكتشف الناس سرها آخر الأمر ، فانهم لم يصدقوا حكايات الآلهة الغريبة وما دار حولها من معارك وما أنشئ لها من معابد وكنوز . بل إن أحدا لم يعد يذكر أطلال المدينة القائمة وسط الأدغال ، ونسى الناس تماما شعب المايا وحضارته .

لم يهتم علماء الآثار من الأمريكيين بتلك الحضارة . فقد شغلوا بالتنقيب عن حضارة الإغريق والرومان والمصريين القدماء . وانصرفوا عن التفكير فى الأجناس التى عاشت فى القارة الأمريكية قبل أن يبدأ تاريخها المكتوب .

غير أن شخصاً واحداً قرأ كتب الأسقف دى لاندا وصدقها . وهذا الشخص هو الصبى الأمريكى الصغير ادوارد . ه . طومسون . قرأ طومسون قصص المايا

القدماء ، وصمم على أن يذهب يوماً ما ، حينما يكبر ، إلى يوكتان ليرى بنفسه ما هناك ، وكان أهم ما يريد الوصول إليه هو المدينة المقدسة عند المايا وهى تشيشين إتزا :

وتشيشين إتزا معناها « فوهة بئر إتزا » . وسميت كذلك نسبة إلى اسم الأسرة الحاكمة فى إتزا ، ولأنها كانت تقع على مقربة من بعض الآبار الطبيعية ، التى كانت اثنتان منها على جانب كبير من العمق والاتساع . وإحدى هاتين البئرين كانت كافية لتزويد سكان المدينة بجميع ما يحتاجون إليه من الماء . أما البئر الثانية فمستديرة هائلة ، عرفت بالبئر المقدسة .

وقد حكى ديجو دى لاندا قصة غريبة عن هذه البئر المقدسة ، فقال : إن إله المطر عند المايا واسمه « يم تشك » كان يعيش فى قاعها . وكان من الضرورى عندهم أن يكسبوا رضاه ليرسل إليهم المطر الذى يروون به قمحهم . فإذا حدث جدب ولم يسقط المطر لمدة طويلة ، قال رجال الدين إن « يم تشك » غاضب . وهنا يتحتم على الناس من كل أنحاء البلاد أن يأتوا بالهدايا لإله المطر ،

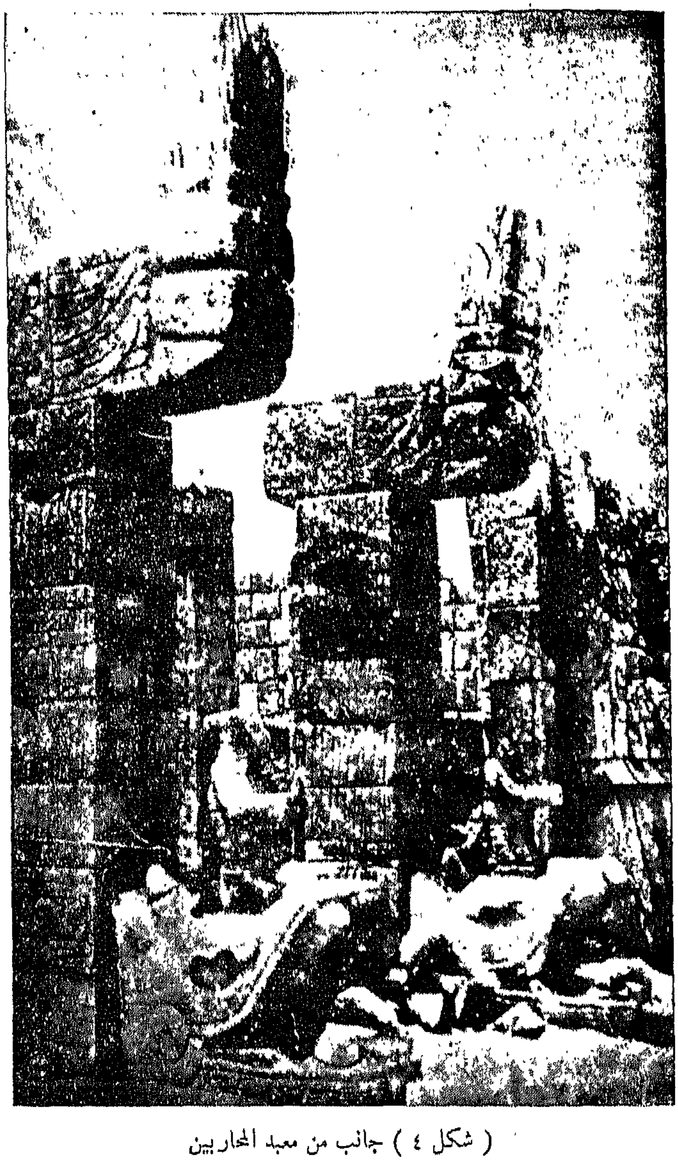
ويختاروا أجمل فتيات المملكة عروسا لهذا الإله القاسى .

ويقود رجال الدين الناس من المعبد ، عبر الطريق المقدسة ، إلى حافة البئر العميقة حيث يقذفون بالهدايا والقرابين . وأخيراً ، وبين الأدعية وترانيم الصلوات ، يقذفون بالعروس الجميلة بعيداً ، فى وسط البئر .

وتسقط العذراء — وهى فى أرق ثيابها وأثقل حليها — إلى الأعماق البعيدة فى قاع البئر المقدسة لتستقر بين ذراعى « يم تشك » . فإذا ما حاز القربان رضا الإله أرسل إلى رعاياه المطر ثانية حين يكونون فى أشد الحاجة إليه .

لم يصدق معظم الناس قصة دى لاندا عن العرائس الضحايا ؛ ولكن طومسون كان متأكداً أنها مبنية على حقائق . وصمم على أن يعثر على البئر المقدسة ويستخرج منها كنوزها البشعة . وهنا يستطيع أن يبرهن للعالم أن القصة القديمة التى رواها دى لاندا كانت قصة حقيقية .

وواتت طومسون الفرصة فى شبابه ، فقد كان فى الخامسة والعشرين حين عينه رئيس الولايات المتحدة أول قنصل لبلاده فى يوكتان . وهكذا وجد طومسون



(شكل ٤) جانب من معبد المحاربين

نفسه أخيرا فى البلد الذى قرأ عنه كثيراً وأحس أن فى وسعه أن يبدأ البحث عن تشيشين إتزا .

وذات يوم خرج طومسون ممتطيا ظهر جواد واتبع الإرشادات التى قالها دى لاندا فى كتابه القديم . كانت الرحلة بطيئة إذ كان لا بد من قطع الفروع والكروم الكثيفة لفتح الطريق . وانقضى يوم طويل حار ، ثم بدأ الظلام يزحف وبدأت تزحف معه برودة الليل لتنعش الجو ، وطومسون يركض متعبا ساعة بعد أخرى ، وهو يسأل نفسه بين الحين والحين : هل توجد حقا مدينة عريقة بين هذه الأدغال الكثيفة ؟ ألا يحتمل أن يكون أمراء المايا إنما حكوا للقسيس خرافات ليس إلا .

وفجأة لمح وميضا أبيض أمامه . وهناك ، وفى ضوء القمر الساحر فى ليالى يوكتان ، رأى – كالشبح – بناء ضخماً يعلو تلا شديد الانحدار ، وأخذ البناء يكبر رويداً رويداً مع كل خطوة يخطوها حصانه المتعب المكدود . وأخيراً رأى طومسون لأول مرة هرم كوكولكان الكبير .

ولم ينم الرجل الشاب من فرط سروره فأخذ يصعد

التل فوق سلم شديد الانحـــدار تغطيه الشجيرات والأعشاب ، حتى وصل إلى باب المعبد الكبير الذى كان يمثل عقيدة عفى عليها الزمن . وحينما نظر من مكانه إلى أسفل التل رأى اثنى عشر هرما أخرى تكسوها الأتربة والخرائب ، كما رأى خلال الظلام نقوشاً جميلة على الأحجار .

وارتعشت ركبتاه قليلا ، وهو وحده فى ذلك السكون الغارق فى ضوء القمر ، فربما كان الإله الثعبان ذو الريش نائماً ، وقد يستيقظ فى أية لحظة . إن غضبه سيكون عظيما ولا شك ، لو أفاق فرأى ذلك الغريب الكافر به يتجرأ على معبده .

وفجأة وهو ينظر خلال الخرائب على المدينة القديمة رأى طريقاً مستقيما يوصل بين المعبد والبركة المظلمة الواسعة . وفى لمح البصر عرف أنه ينظر إلى الطريق المقدس ، وأن البركة المظلمة لا بد أن تكون هى البئر المقدسة الذى يعيش فى أعماقها « يم تشك » إله المطر مع عظام العرائس العذارى .

كان على طومسون أن ينتظر انبلاج ضوء النهار ليتعرف المكان .

آه . . ما أعجب المنظر الذى رأته عيناه عند إشراق شمس الصباح ؛ إنها مبان ضخمة لا نوافذ لها ، ترتفع عالية فوق عدد من الأهرامات التى صنعتها يد الإنسان وحده ، دون استعانة حتى بالحيوانات أو العربات : وثعابين ضخمة من الحجر تماوج ذيولها الطويلة من الأرض إلى قمم هذه الأهرامات ، ونقوش غريبة بديعة صنعها قوم لم يستخدموا سوى الآلات الحجرية . وقطع ضخمة من حجر البناء لا يقوى على رفع الواحدة منها أقل من اثنى عشر رجلا . وقد صفت هذه الأحجار فى مداميك صفاً متقناً وبنيت بها القصور والمعابد . أما الرسوم الحائطية الملونة فتمثل كهنة ، ومحاربين يلبسون ملابس غريبة . وهكذا نرى أن طومسون كان على حق حينما اعتقد أن القصص التى قالها أمراء المايا ورواها عنهم الأسقف دى لاندا كانت حقائق ثابتة ، والدليل : أنه يرى الآن أمام عينيه مدينة المايا المقدسة .

ولكن ماذا عن البئر ؟ أليست قصتها حقيقية كذلك . ؟

إن طومسون شديد الشوق إلى معرفة هذه الحقيقة ، ولذا أخذ يسير فى الطريق الممهدة المستقيمة . وهى الطريق المقدسة ، غير عابئ بضربات أفرع الأشجار ، ووجد أن الطريق تؤدى إلى معبد صغير متهدم ، ومنه إلى البئر ذاتها .

والبئر المقدسة كبيرة ، دائرية الشكل ، تنحدر جدرانها الحجرية بشدة إلى القاع مسافة سبعين قدماً قبل أن تصل إلى سطح الماء الآسن . أما قطرها فيبلغ مائة وستين قدماً .

نظر طومسون إلى سطح المـــاء الداكن المخيف فى جوف هذه البحيرة الكبيرة البعيدة الغور ، وفكر فى الوسائل التى يستطيع بها إماطة اللثام عن سرها الدفين . لقد شغل بها كثيراً أثناء النهار ، ولم تتركه فى أحلامه أثناء الليل .

قرر طومسون أن أسهل الطرق للوصول إلى غرضه هى استخدام كراكة ميكانيكية يطهر بها قاع البئر ويرفع بها الصيد الخبيء .

أخذ طومسون يعمل يوماً بعد يوم مستعيناً فى عمله ببعض الهنود ، وكانت الكراكة لا تخرج إلا الأوراق العطنة والطين والأحجار ، واستمر على ذلك أياماً ، وبدا أن البئر كأنها أرادت الاحتفاظ بسرها إلى الأبد .

وحينما بلغ اليأس آخر مراحله من نفس طومسون ، بدأ الحظ يواتيه ، إذ أخرجت الكراكة كرتين لونهما سمنى ، وفى حجم بيض النعام . وسر طومسون بذلك سروراً عظيما .

وعلى الرغم من أن هاتين الكرتين لم تكن لهما أهمية كبيرة ، إلا أنهما كانتا دليلا قويا عند طومسون ، على أن الطقوس الدينية القديمة كانت تقام فى ذلك المكان . والكرتان مصنوعتان من مادة مطاطة تسمى كوبل كان يحرقها المايا أثناء القيام بطقوسهم الدينية : وهذه المادة تعطى رائحة زكية عند احتراقها : وهنا تأكد طومسون أن كرات الكوبل كانت تلقى فى البئر كقرابين للإله « يم تشك » .

إنه على صواب إذن . ومنذ ذلك الوقت والكراكة تخرج فى كل لحظة صيداً جديداً ؛ كقطع النسيج والحبال

وبعض المزاريق الخشبية البدائية الصنع والتى تشبه تماما ما رآه طومسون مصوراً فى الرسوم الحائطية للمعارك القديمة . وهناك أشياء مصنوعة من المطاط من بينها عرائس لها أذرع وأرجل متحركة ، وقدور على هيئة رءوس آدمية ، وأخرى على هيئة حيوانات وتماسيح .

وفى يوم من الأيام أخرجت الكراكة جمجمة فتاة صغيرة ، ثم أخذت تخرج عظاما كثيرة ، منها عظام أسرى محاربين قذفوا بهم إلى البئر مع العرائس الصغيرة . ومما أثار الإشفاق أن الكراكة أخرجت ذات يوم نعلا رقيقة لإحدى العرائس الصغيرات . وأخيراً ، أصبحت لدى طومسون أدلة على صحة القصص القديم الذى تضمن هذه التضحيات القاسية .

استمر الحفر فى البئر إلى أعماق أكثر وأكثر ، حتى وصل أخيراً إلى طبقة حجرية صلبة . وهنا أدرك طومسون أن الأيدى الآدمية فقط هى التى تستطيع إخراج ما يكمن فى قاع البئر العميقة ، ومعنى هذا إنزال الغواصين إلى قاع البئر

الشديد البرودة ، مسافة ستين قدما حيث مقر الإله « يم تشك » المخيف .

إنه عمل مرعب ، ولكن طومسون لم يهدأ حتى كشف الغطاء عن الأسرار المحيطة بالضحايا . وأخذ يعمل يوما بعد يوم فى مياه البئر الكدرة ، ويخرج أشياء كثيرة جميلة من الذهب ، كالأقنعة وأقراص إله الشمس ، وثعابين ذات ريش ، وضفادع راقصة ، وقرود ، وسكاكين لذبح القرابين والضحايا ، ومئات الأجراس من الذهب والنحاس الأحمر ، بالإضافة إلى قطع منقوشة نقشا جميلا من حجر اليشم . وكانت هذه المادة أكثر قيمة عند المايا من الذهب . وربما احتفظ الإله « يم تشك » بمعظم كنوزه الذهبية ، ولكن الكثير الذى اكتشفه طومسون ، إلى جانب الرسوم الحائطية المنقوشة على جدران المبانى القديمة ، يمكن أن يعطينا القصة كاملة .

كانت كل الأشياء التى استخرجها طومسون من البئر محطمة ، ويرجع ذلك إلى أن المايا كانوا يؤمنون بأن كل الأشياء لها روح وحياة ، وأنهم بتحطيمها أو قتلها يعتقون

أرواحها لتذهب مع أرواح ضحاياهم من العرائس والمحاربين إلى إله الموت .

والآن لنقلب صفحات الماضي لنرى طقوسهم .

إن القمح يذبل ويتصوح فى الحقول ، لأن إله المطر المخيف غاضب يريد القرابين . وعندئذ يخرج الناس مع ضوء الفجر من المعبد العظيم ، لتبدأ التراتيل الجنائزية مع دقات الطبول البطيئة .

ويأتى الكاهن الأكبر ذو الشعر الأسود الطويل المتدلى على كتفيه من تحت قبعته الزرقاء ، والذى يزين كتفيه وأذنيه ورسغيه ونعليه ، بقطع من حجر اليشم الثمين . وتخرج من قبعته ريشة طويلة تتقوس حتى تبلغ الأرض ويحمل فى يده مبخرة يتصاعد منها دخان الكوبل . ومن خلف هذا الكاهن الأكبر يأتى آخرون أصغر منه من الكهنة والسحرة والمشعوذين ، يحملون فى أيديهم ثعابين حية .

ويتبعهم ببطء النبلاء ، وقد لونت أجسامهم كلون

أجسام الثعابين ، وغطيت وجوههم بأقنعة غريبة ، ويسير من خلف هؤلاء الخدم حاملين الذهب والجواهر واليشم من جميع أنحاء البلاد .

وفى النهاية تأتى العروس الجميلة ، وتكون عادة أجمل صبايا المملكة . وتحضر إلى المعبد شاحبة الوجه زائغة البصر ، مستلقية على وسادة مطرزة يحملها الكهنة ، إلى المستقبل المجهول .

ويدخل الكاهن الأكبر معبداً صغيراً ليصلى وليحرق البخور المقدس ، ثم يكفّون عن الغناء وتسكت الطبول حين يلقى به إلى البئر . ثم يلقى فى إثر البخور المقدس بالهدايا الكثيرة للإله الغاضب « يم تشك » .

ويعود بعد ذلك الغناء الحزين ودقات الطبول ، بطيئاً بطيئاً أول الأمر ، ثم يرتفع الغناء وتسرع الدقات حينما يرفع اثنان من الكهنة العروس الجميلة من فوق وسادتها ، ويحملانها إلى حافة البئر ثم يؤرجحون الجسم النحيل مع دق الطبول البطيئة ، ثم تشتد سرعتها ويعلو صوتها تدريجيا .

وفى لحظة ، يعطى الكاهن الأكبر الإشارة ، فيقف الغناء والطبل ، ويقذفون بالعروس الصغيرة بعيداً إلى وسط البئر ، فتسقط سريعاً إلى قاع الماء المظلم ويومض وشاحها الأبيض سريعاً ، ثم يختفي وترتفع وراءه بعض قطرات من الماء ، ثم تظهر تموجات طفيفة على سطح الماء الآسن يكون « يم تشك » بعدها قد حصل على عروسه .

وقد لفت إدوارد طومسون نظر العالم إلى بقايا هذه الحضارة المفقودة فى القارة الأمريكية . ووجد علماء الآثار أن تشيشين إتزا لا تقل فى روعتها عن مدن اليونان أو روما أو مصر القديمة رغم أنها لم تبلغها فى القدم . ونتيجة لهذا الاهتمام عملت حفريات كثيرة ، وأقامت موءسسة كارنيجى هناك عدة مخازن لموجودات هذه الحفائر .

ولأن طومسون صمم على أن يحول الأساطير إلى حقائق ، صار من اليسير اليوم أن تزور مدينة تشيشين إتزا ؛ وقد أزيلت من حولها الكروم والأشـــجار وأعيد وضع الأحجار التى تداعت . ويمكن لزوار تلك المدينة القديمة أن يركبوا الآن سيارات حديثة فى الطريق الذى

اخترقه طومسون يوماً ما وسط الأدغال ، ويمكنهم كذلك أن يروا المرصد الكبير المستدير الذى كان يدرس فيه المايا تحركات النجوم والذى اخترعوا بوساطته تقويما أدق من تقاويم عصرنا . ويمكن للزوار أن يتجولوا فى ملعب الكرة حيث كان المايا يلعبون لعبة تشبه كثيراً لعبة كرة السلة التى نعرفها . ويستطيع القصاد ارتقاء أربع ومائة درجة من درجات السلم الضيقة الصاعدة إلى معبد كوكولكان العظيم وهو الإله الثعبان ذو الريش . ومن ذلك المرتقى يمكنهم أن يتتبعوا الممر الذى طالما سارت فيه قديما المواكب إلى الطريق المقدس الذى ينتهى بالبئر المقدسة ، حيث يقيم « يم تشك » إله المطر ، الذى لا يزال يحتفظ بعظم كنوزه وعظام عرائسه الجميلات الصغيرات .

الفصل الثالث

وادى الملوك

نشرت الصحف تحت عناوينها الكبيرة عام ١٩٢٣ ، أخبار كشف هام ، إذ عثر أحد علماء الآثار الإنجليز على موميا واحد من عظماء ملوك مصر القديمة . وكانت الموميا ترقد سليمة في تابوتها الذهبي الذى لم يمسسه أحد منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

فمن يكون هذا العظيم الذى بهر أنظار الناس فجأة بعد رقاده قرونا طويلة ؟

هذا الملك هو توت عنخ آمون الذى حكم مصر ، تلك المملكة القوية ، حول ، عام ١٣٥٠ ق . م ، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة . كان الملك الصغير كصبيان اليوم ، يحب الرياضة بشتى أنواعها . ولما لم تكن كرة السلة أو كرة الطاولة أو التنس من الألعاب المعروفة فى عصره ، فإنه اتجه إلى حب الصيد واللعب بالقوس

والنشاب . وكان يصيد بقوسه المغطاة برقائق الذهب : البط البرى والنعام والأسود والضباع وغيرها .

ولم يحكم توت عنخ آمون سوى مدة قصيرة جداً ، إذ أدركته منيته وهو فى الثامنة عشرة من عمره وحمل تابوته على سفينة ، اعتقد المصريون القدماء أنها تعود بالملك الشاب فيما بعد إلى العالم السفلى . ووضعت السفينة على مركبة مغطاة بالأزهار . وجر النبلاء ورجال الحاشية المركبة الثقيلة ، ومن فوقها التابوت ، إلى مقره الأخير فى مقبرة بوادى الملوك ، حيث دفن أسلافه . واستمر موضع المقبرة معروفاً مدة من الزمن ، قد تبلغ بضع مئات من السنين ، ولكن رمال الصحراء أخذت تسد مدخلها بالتدريج ثم اختفت عن أنظار الناس ، وضاعت من ذاكرتهم أيضاً .

ومعظم معلوماتنا عن مصر القديمة استقيناها عن طريق ماكشفه علماء الآثار من حفرياتهم فى مقابر ملوكها . ومرجع هذا القول السليم إلى تقاليد الدفن العجيبة ، التى جرى عليها المصريون القدماء . فقد كانت اعتقاداتهم الدينية



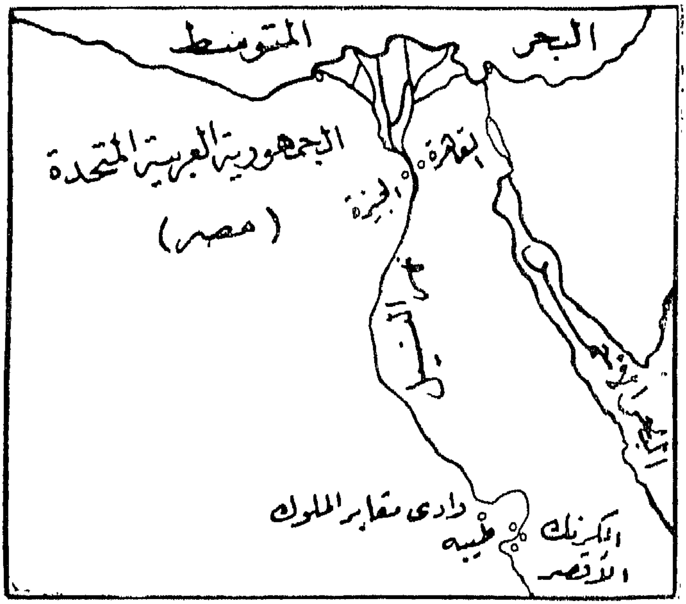
(شكل ٥) غطاء تابوت توت عنخ آمون

تحتم عليهم أن يضعوا مع جثث الموتى بجميع الأشياء التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية .

اعتقد المصريون فى بعث الروح بعد الموت . والبعث معناه أن ينهض الشخص من موته ثانية . وقد آمنت بهذه العقيدة شعوب كثيرة أخرى ، ولكن المصريين اعتقدوا أن الروح تظل باقية ما بقى الجسد ، وأن فناء الجسد يؤذى الروح . ولذلك حرص أهل المتوفى على أن تبقى جثة فقيدهم سليمة إلى الأبد .

وتسمى الطريقة التى اتبعوها لحفظ الأجسام بالتحنيط ، أو تحويل الجثة إلى موميا . وكان الاعتقاد السائد أن المصريين وحدهم هم الذين عرفوا الأسرار العجيبة لمواد التحنيط ، التى حفظت أجسام موتاهم سليمة لآلاف السنين . ولكن العلماء عرفوا الآن أن الذى ساعد حقاً على منع تحلل تلك الأجسام هو جو مقابرهم الرملية الجافة الخالية من الجراثيم .

ولما كانوا يعتقدون أن أجسادهم ستبقى إلى الأبد ، فقد احتفظوا معهم فى قبورهم بكل ما يمكن أن يحتاجوا إليه



(شكل ٦) مكان وادى الملوك من وادى النيل

فى المستقبل . ولما كان هذا أيضاً هو اعتقاد ملوكهم الأغنياء الأقوياء ، أو الفراعنة ، كما كانوا يسمونهم ، فإننا وجدنا فى مقابرهم أجمل وأنفس ما فى بلادهم من الحلى الثمينة ، والملابس المزركشة والأحذية الرقيقة ، والأسرّة والكراسى المزينة بنقوش من الذهب والجواهر ،

والأوانى والعلب المحفورة حفراً بديعاً والمملوءة بأنواع الطعام والآلات الموسيقية والأسلحة ، والعربات المذهبة وكراسى العرش أيضا . كما دفنوا معهم قوارب مجهزة بسبعة مجاديف سحرية ، لتحمل الفرعون فى رحلته عبر النهر فى العالم السفلى .

ودفنوا معهم أيضاً تمائم كثيرة وصوراً سحرية تضم من التعاويذ ما يكفى لحماية الملك أثناء رحلته الطويلة . وكتبوا على جدران المقابر أدعية وصلوات كثيرة ، لأنهم آمنوا بالأثر السحرى للكلمات المكتوبة . فإذا كانت الكتابة تقول إن الملك سوف يحصل دائماً على الطعام فإن سحر الكلمات يحولها إلى حقيقة .

وتتكون هــذه الكتابات من علامات جميلة تسمى الهيروغليفية ؛ ومعناها النقوش المقدسة . وقد استمر العلماء زمناً طويلا لا يستطيعون قراءة هذه اللغة الغريبة . ولولا أنه قد أتيح لهم العثور على لوح سميك من الحجر الأسود هو « حجر رشيد » لبقيت هذه الرموز بدون حل إلى الآن .

عثر أحد رجال نابليون عام ١٧٩٩ على هذا الحجر ،

قرب مصب النيل عند رشيد . وكان الحجر كبيراً فى حجم قرص النضد ، وتغطيه ثلاثة أقسام من الكتابة فى لغتين ، وأحد هذه الأقسام مكتوب باليونانية ، والآخران ، باللغة المصرية القديمة بلهجتيها الدارجة والهيروغليفية . والأقسام الثلاثة منقوشة عام ١٩٠ ق . م . وتتضمن كلها الكلمات التى تقدس الفرعون . وبعد عشرين عاماً توصل أحد العلماء الفرنسيين ، ويدعى شمپليون ، إلى قراءة الرموز الغريبة ، وذلك بمقارنة الكتابة المصرية المجهولة بالكتابة اليونانية التى يعرفها .

وبفضل حجر رشيد تمكن العلماء المحدثون من قراءة الكتابات السحرية المنقوشة على جدران المقابر ، بالسهولة التى نقرأ بها كتبنا ومجلاتنا اليوم .

ومن اعتقادات الديانات المصرية أن الروح تُسرّ لدموع الحداد كما تُسرّ لبذل العطاء ، ولذا تأتى الأسرة لزيارة القبر فى يوم معين ومعها القرابين وألوان الطعام والكتب والأزهار وأشياء أخرى مما ينفع فى الحياة الآخرة .

ولو أن هذه الأشياء الجميلة القيمة بقيت سليمة طوال

السنين ،لكونت لنا قصة رائعة جميلة . ولكن كان هناك مجرمون كما هى الحال اليوم ، وهؤلاء أغرتهم الكنوز التى تضمها المقابر بالسرقة رغم معرفتهم أنهم بسرقتهم هذه الأشياء إنما يخالفون دينهم ويعرضــون ملوكهم السابقين للخطر فى حياتهم الآخرة . ودخل هؤلاء اللصوص المقابر خلال القرون العديدة الماضية ، وسرقوا كل ما أمكنهم حمله منها .

حقيقة لقد اكتشف علماء الآثار كثيراً من المقابر الملكية ، ولكن أيدى اللصوص امتدت إلى الذهب والكنوز وتناولتها بالبيع منذ أمد بعيد . وبقيت لنا الرسوم والكتابات الجميلة والأشياء التى لم ير اللصوص أنها تستحق السرقة . ومن هذه الأشياء الباقية عرفنا الكثير عن هذه الحضارة الرائعة . وكان حلم كل عالم بالآثار هو أن يجد ، يوماً ما ، مقبرة لم يمسسها اللصوص ، وأن يرقد بها الفرعون وعليه مسوح الدفن المزركشة كما وضعها الكهنة منذ قرون عديدة .

وكان عالم الآثار المحظوظ هذا ، هو : هوارد كارتر . وساعده على عمله اللورد كرنارفون ، الثرى الإنجليزى، الذى

أغرم بالآثار إلى حد بعيد . وقد أذن لهذين الرجلين بالتنقيب عن الآثار فى وادى الملوك عام ١٩١٤ م ، حيث كان قد تم كشف ست وعشرين مقبرة ملكية .

وظن الناس وقتئذ ، أن لا فائدة من البحث عن مزيد من المقابر فى هذا الوادى ؛ إذ قام بالحفر هناك ، ولمدة عام قبلهما ، عدد كبير من علماء الآثار ، حتى لقد بدا مؤكدا أن حبة رمل واحدة لم تترك دون غربلة .

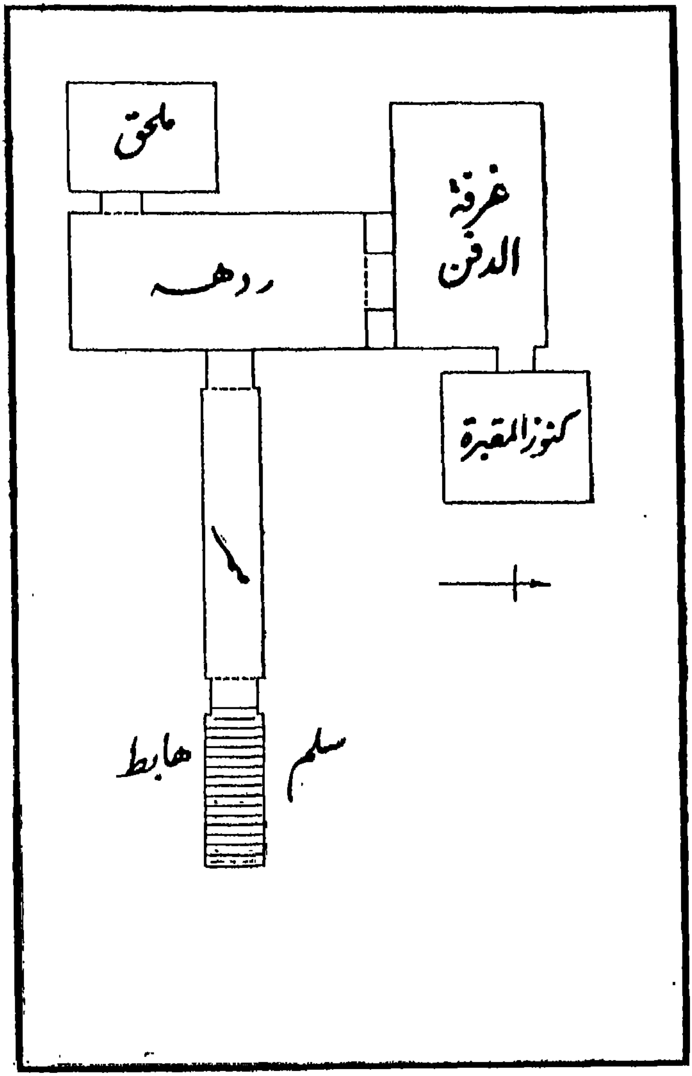
ولكن كارتر وكرنارفون لم تفت فى عضدهما أقوال الآخرين ، والواقع أن كارتر كان يأمل كثيراً فى أن يوفق إلى كشف مقبرة ملك بذاته ، وكان اسم هذا الملك : توت عنخ آمون .

اعتقد كارتر ، أن وادى الملوك لا بد أنه يحتوى على مقابر جميع فراعنة تلك الفترة ، ولكن لم يكن ثمة وجود لمقبرة توت عنخ آمون حتى ذلك الحين . ولما كان المنقبون قد عثروا فى هذه المنطقة على كأس وصندوق خشبى يحمل اسمه ، فقد أصبح لزاما أن يسألا أنفسهما : أين توجد إذن مقبرة هذا الملك ؟ ؟

ساد الاعتقاد بأن وادى الملوك هو مقر دفن توت عنخ آمون ، ولذلك أعمل كارتر ذهنه فى تحديد موقع المقبرة من هذا الوادى . إن البحث ربما يفشل فى العثور على قبر هذا الفرعون التائه تماماً ، كما يفشل البحث عن وعاء الذهب الموجود فى طرف قوس قزح ، ولكن هوارد كارتر كان شديد الإيمان بالنجاح ، قوىّ العزيمة والتصميم لبلوغه .

مضت على الرجلين ستة مواسم من العمل الشاق دون أن يعثرا على المقبرة ، فاشتد استياؤهما ويأسهما ، وبدا لكل من كارتر وكرنارفون أنهما كانا على خطأ فى اعتقادهما أن ثمة مقبرة ما قد يكتشفانها فى هذا الوادى . ولكنهما أصرا على القيام بمحاولة أخيرة للعثور على الأمل المنشود .

ولم يكد الحفر يبـــدأ فى الموسم التالى ، حتى ضربا بمعاولهما حجر الدرجات الست عشرة الأولى المنحوتة فى الصخر . وحينما انتهيا من الكشف باحتراس عن هذا السلم الشـــديد الانحدار ، رأيا منظراً عجيباً : رأيا بابا مغلقاً



(شكل ٧) تخطيط لمقبرة توت عنخ آمون

بالأختام : ترى ماذا وراء الباب ؟ ربما كان مقبرة ناقصة ؟ . . . أو . . . لعله قبر واحد من الكهنة ؟ : : وعلى فرض أنها مقبرة حقيقية لأحد الملوك ، فماذا ترك منها لصوص القبور لعلماء الآثار ؟

أخذ الرجلان يعملان فى شوق شديد للكشف عن الباب ، ولكنهما لم يجدا خلفه سوى دهليز ينتهى بباب مغلق بالأختام هو أيضاً . وعندما فتحا الباب الثانى رأيا حجرة مملوءة بالكنوز ، وأشياء جميلة متعددة الأنواع . ونورد هنا كلمات هوارد كارتر نفسه التى قالها فى تلك اللحظة المثيرة :

« ثلاثة آلاف سنة مرت منذ أن لمست آخر قدم آدمية هذه الأرض التى نقف عليها ، ومع ذلك فأنت ترى آثار الحياة القديمة كلها من حولك . . ترى بصمات الأصابع على المسطحات المرسومة ، وأزهار الوداع ساقطة فوق العتبة ، وتحس أن كلّ هذا قد حدث بالأمس فقط . . . . ويتبع ذلك إحساس ثقيل سريع — هو مزيج من الشك والتأمل . . . إنه إحساس الإنسان بأنه على وشك أن يضيف صفحة

جديدة إلى التاريخ . . . إنه التطلع والانتظار الملىء بالقلق . . . . قلق الباحث عن الكنز المأمول » .

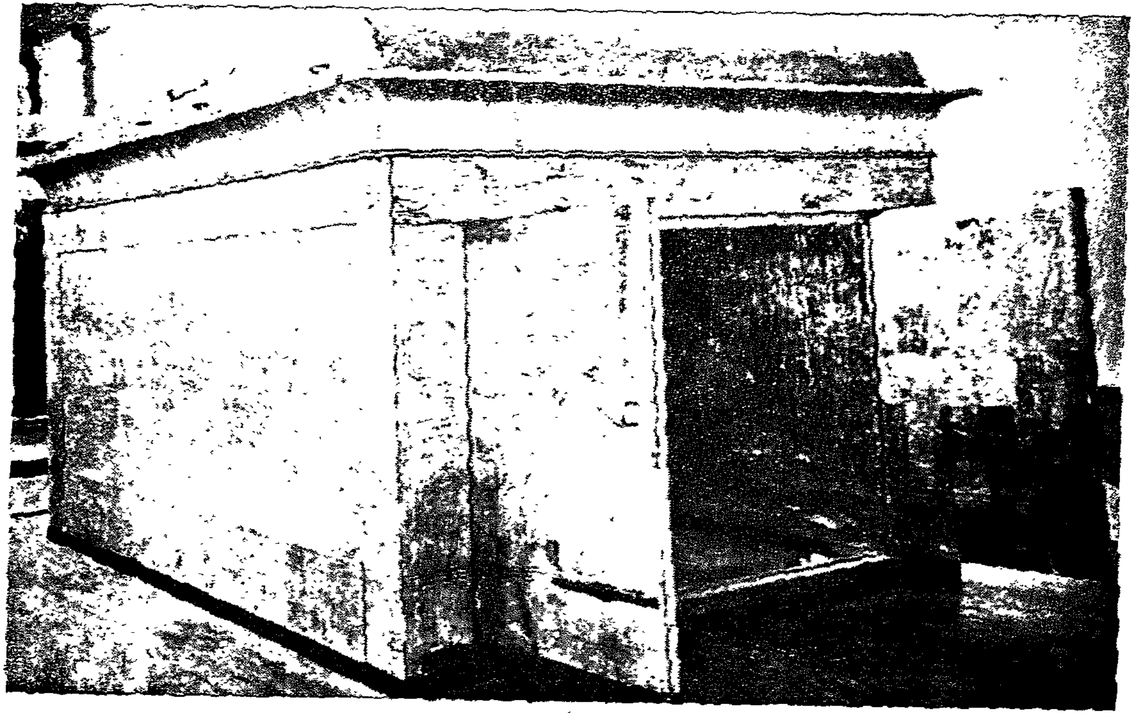
ويمكن أن تتصـور مدى الاستياء حينما يتضح أن اللصوص قد سبقوا إلى هذا المكان ، وأن الأشياء وضعت فى غير مواضعها : فالملابس أخرجت من صناديقها ونثرت حول الصناديق ، والأسرة التى صـنعت على أشكال الحيوانات الغريبة قد اختلطت دون نظام مع الكراسى الصغيرة ، والزهريات المنقوشة ، وكرسى العرش الذهبى ، وصناديق الأطعمة والقرابين وغيرها . وإلى جانب هذا ، أربع عربات ذهبية ملكية محطمة ومكومة بعضها فوق بعض : وحينما كان المنقبون يمهدون طريقا بين تلك الكنوز المتراكمة ، رأوا باباً آخر موصدا ولكنهم سرعان ما علموا أن اللصوص قد سبقوهم إليه أيضا .

واختلط الأمر على عالمى الآثار ؛ إذ كيف تنهب المقبرة على النحو الذى رأياه ، على حين لا تزال الأبواب مقفلة ومختومة ؟ ثم لماذا ترك اللصوص كل هذه الأشياء الجميلة ؟ ومتى حدثت هذه السرقة ؟

وجد كارتر على الأرض ثمانى حلقات ذهبية مربوطة فى وشاح رقيق ، وتبدو كما لو أنها سقطت من شخص وهو فى حالة اضطراب وعجلة . واستخلص كارتر وكرنارفون من هذا الذى شاهداه ، أن لصوص المقبرة أقلقهم شىء ما قبل أن يستطيعوا أخذ الكثير معهم . وفى عجلتهم للهرب ، سقط منهم الوشاح ذو الثمانى الحلقات الذهبية . والراجح أن السرقة حدثت بعد الدفن بوقت قصير ، لأن المسئولين الرسميين عن سلامة المقبرة أعادوا إحكام إغلاق الأبواب بالأختام بعد هرب اللصوص .

وقد سيطر على عقل كل من الرجلين سؤال واحد هو : أين الموميا ؟ لا بد أن خالجهما شىء من الشك ، فقد وجدا أن كل الأبواب المختومة قد فتحت . ياللروعة والسعادة لو أنهما وجدا حجرة مملوءة بالأشياء الغريبة الفاخرة ! لكن . . . كيف يحدث هذا واليأس ينتابهما كل لحظة ، لأنهما لم يعثرا بعد على التابوت ؟

وأخيراً ، اكتشفا بابا رابعا لم تفض أختامه بعد ، ولم يسبقهما إليه اللصوص فى هذه المرة ؛ لقد ظل هذا



(شكل ٨) الناووس الثانى الذى كان يضم تابوت توت عنخ آمون

الباب مغلقاً منذ ثلاثة آلاف سنة وظلت أختامه سليمة وعليها الاسم الذى طالما طاف بخيال كارتر : اسم « توت عنخ آمون » . ووقف إلى جانبي هذا الباب تمثالان كبيران للملك باللونين الأسود والذهبي يحرسان المدخل . وفى النهاية وجد الرجلان نفسيهما أمام الحجرة التى دفن فيها الملك الشاب ، وانتهى بذلك الشك الذى طالما ساورهما .

أزاح هوارد كارتر الملاط باحتراس من فوق الباب المختوم ، وحينما نزع الباب رأى حائطا مذهلا من الذهب .

وانقضت لحظة لم يستطع كارتر وزميله أن يتصورا — من فرط دهشتهما — ماذا عسى أن يكون هذا الحائط ! ولكن سرعان ما انكشف سر الحائط الذهبي ، فقدكان غرفة كبيرة أو صندوقا مقدسا صنع ليضم رفات الملك فى مقره الأخير . أما حجمه ففى حجم حجرة من حجرات منازلنا الحديثة ، ووجد الرجلان على الأرض وحول الناووس الكبير ، المجاديف السحرية السبعة التى يحتاج إليها الملك فى عبوره بحر العالم الدنيوى . ونقشت على الجدران كتابات سحرية وتعاويذ لتحفظه قويا وفى سلام . وعندما فتحت أبواب

هذا الصندوق الكبير وجدا ثلاثة نواويس أخرى ، كل واحد منها داخل الآخر ، على نحو ما نرى فى بعض لعب الأطفال ، وكان كل ناووس يضم أشياء أجمل مما يضم سابقه .

وفجأة فترت حماسة عملية الكشف بسبب وفاة اللورد كرنارفون ؛ وذلك قبل أن يتم فتح كل النواويس . . لقد اطمأن الرجل إلى أنه اكتشف مقبرة توت عنخ آمون ، لكن الموت عاجله فى أسعد لحظات حياته .

وأخيراً فتح كارتر ومن معه من العلماء أبواب الناووس الرابع الداخلى ، فوجدوا تابوتاً كبيراً من الحجر الأصفر ، يبلغ فى حجمه حجم الناووس الذى يكمن التابوت بداخله . وفى تلك اللحظة بدت القرون وكأنها لم تطو بعد . فقد رأوا ما لم تره عين فى الأزمنة الحديثة . . رأوا فرعون مصر العظيم يرقد فى تابوته ، تماماً كما أرقدوه يوم دفن منذ أكثر من ثلاثة وثلاثين قرناً .

وفى داخل هذا التابوت الحجرى وجدوا ثلاثة صناديق بعضها داخل بعض ، وقد نقش على غطاء كل منها رسم الملك الشاب ، وأول هذه الصناديق من الخشب ، على حين

صنعت أيدى الملك ووجهه من الذهب الخالص . وفوق الصندوق الثانى ، الذى بداخله ، كانت أكاليل الدفن لا تزال باقية ، كدليل صامت على حزن أرملته الشابة . أما الصندوق الثالث وطوله أكثر من ست أقدام ، فمصنوع كله من الذهب ، وهو من الثقل بحيث لا يستطيع رفعه أقل من ثمانية رجال أقوياء . وبداخل هذا الصندوق البراق استقرت موميا توت عنخ آمون ، وقد غطى الوجه بقناع من الذهب .

وبينما هم يفكون باحتراس ، اللفائف التيلية المحيطة بالموميا ، رأوا الأساور البديعة والخواتم والتمائم والدلايات التى تجلب الحظ السعيد ، وكلها من الذهب والأحجار الكريمة . ويبلغ مجموع قطع الجواهر التى وجدت بين هذه اللفائف التيلية ثلاثا وأربعين ومائة قطعة .

ثم ظهر من وراء ذلك كله جسم الفرعون الشاب ، وكأن هذه التمائم والتعاويذ السحرية قد فعلت فعلها المرجو ، فمن دون سائر الملوك العظماء الأقوياء من مصر القديمة ، الذين دفنوا



(شكل ٩) مثل من النقوش الرائعة التي تزين بعض أثاث مقبرة توت عنخ آمون .

فى وادى الملوك لم ينج من عبث اللصوص خلال القرون سوى توت عنخ آمون .

هكذا انتهت قصة كشف المقبرة ، ولكن شيئاً آخر بقى يتردد ذكره ، ألا وهو قصة لعنة الفراعنة . . إنها بدأت بموت لورد كرنارفون عام ١٩٢٣ .

لم يحدث فى تاريخ الآثار اهتمام بكشف ما ، قدر ما حدث لكشف مقبرة توت عنخ آمون ، فقد حظيت باهتمام كبير من الصحافة والإذاعة فى كل أنحاء العالم . وعندما مات اللورد كرنارفون بدأت القصص تطبع عن « انتقام الفراعنة » . ولما مات آخرون من الرجال الذين حضروا فتح المقبرة ، خرجت الصحافة على الناس ومن عناوينها : « الضحية العاشرة للعنة الفراعنة تموت فى ظروف غامضة » ثم ذكرت فيما بعد « الضحية الثامنة عشرة » ثم « الضحية الواحدة والعشرون » . ومات أحد العلماء وهو يصور موميا بأشعة إكس ، فأخذت الجرائد تكتب لقرائها الخائفين إن هناك لعنة تصيب

كل من يعكر سلام الفراعنة ، وإن هناك جراثيم غريبة مميتة فى هواء المقبرة .

وبعد سبع سنوات من وفاة اللورد كرنارفون لم يبق من الجماعة التى كشفت المقبرة سوى هوارد كارتر فقط .

أما كارتر ، فقد أنكر وجود أى علاقة بين كشف المقبرة وبين حوادث الوفاة هذه . وتم إجراء الاختبار على جو المقبرة ، فوجد أنه يكاد يكون خالياً تماماً من الجراثيم ، فليس هناك إذن ما يسمى « لعنة الفراعنة » . والمسألة — كما أصر على تسميتها — مجرد جنون خرافة . ولكنه لم يستطع وقف هذه القصص ، إذ قال الناس : لقد مات أكثر من عشرين شخصاً من المجموعة التى كانت أول من دخل المقبرة . وحتى هذا اليوم ، لايزال الكثيرون يعتقدون لعنة الفراعنة .

الفصل الرابع

وحش قصر اللابيرنت

فى ٢٣ من مارس عام ١٩٠٠ ، غيرت معاول الأثريين الكثير من المعلومات التاريخية التى تناقلتها كتب التاريخ ؛ ففى ذلك اليوم ، أزاحت تلك المعاول المنقبة ، الستار عن حضارة قديمة تضارع فى عظمتها حضارة مصر ، وإن كانت جديدة تماماً بالنسبة لسكان العالم الحديث .

أتذكر أسطورة المنطورس الذى يتغذى على لحوم البشر؟ إنه الوحش الخرافى الذى قالوا إن نصفه إنسان ونصفه ثور ، وإنه كان يعيش فى جزيرة كريت التى تقع فى البحر المتوسط بين مصر وبلاد اليونان . وقد اكتشفت هذه الحضارة القديمة فى تلك الجزيرة الصغيرة ، أوائل القرن العشرين .

وهذا الوحش — كما قالت الأساطير القديمة — كان

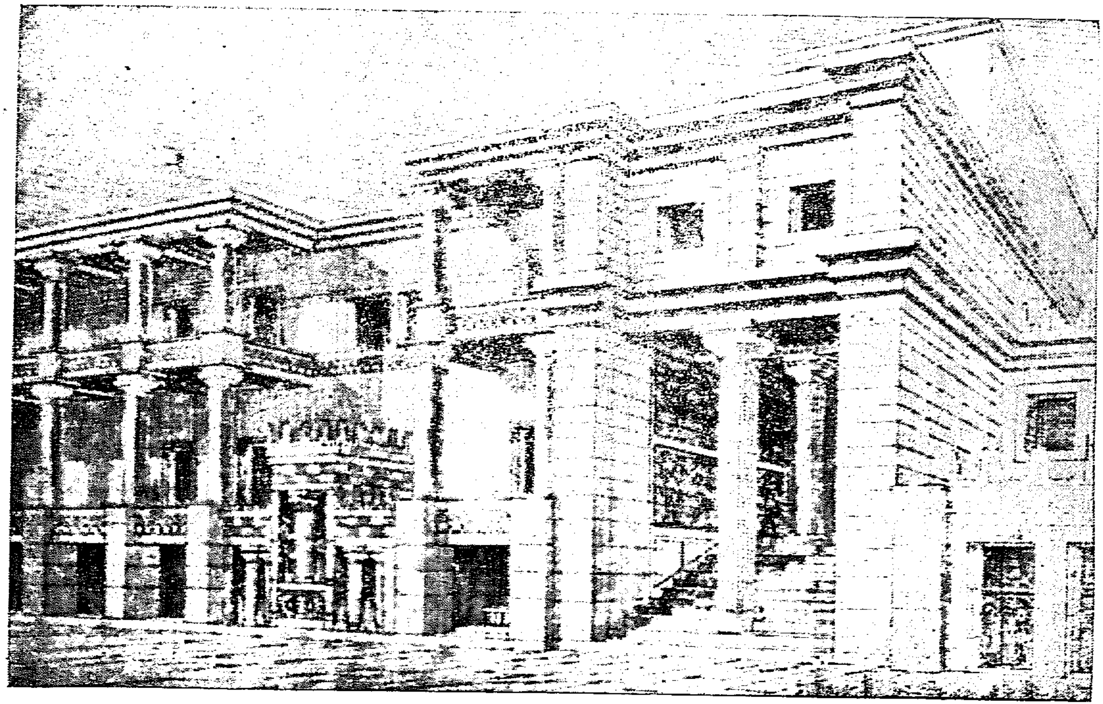
يعيش فى بناء يقال له قصر التيه ، بناه المهندس الخاص للملك كريت العظيم مينوس وجعله مقراً لذلك الوحش .

والتيه الذى كان يعيش فيه الوحش ، مكان ذو طرقات ملتوية كثيرة التعاريج والمنحنيات ، حتى إن من يدخله لايستطيع مطلقا الخروج منه ثانية ، بل يظل يتجول فى قاعاته حتى يصل إلى مربض المنطورس . وهناك يكون الموت فى انتظاره ، لأن الوحش متعطش للّحوم الآدمية دائماً .

وترتبط أسطورة المنطورس بتاريخ الملك مينوس وولديه — أندروجس الابن وأريدنه البنت . .

ذهب أندروجس إلى أثينا مرّة للاشتراك فى المباريات الرياضية هناك ، حيث تفوق على الأبطال فى كل المباريات . عندئذ حقد أجيوس ملك أثينا عليه فأمر بقتله . وأرسل مينوس أسطوله الحربى العظيم لغزو أثينا انتقاماً لمقتل ابنه .

ولم يكتف مينوس بتخريب أثينا ، بل أمر بانتقام أكثر قسوة ، وذلك بأن يختار كل تسع سنوات سبعة من شباب أثينا ، ومثلهم من شاباتها ؛ ليلقى بهم جميعاً فى اللابيرنت ، وهو التيه ، قربانا للمنطورس .



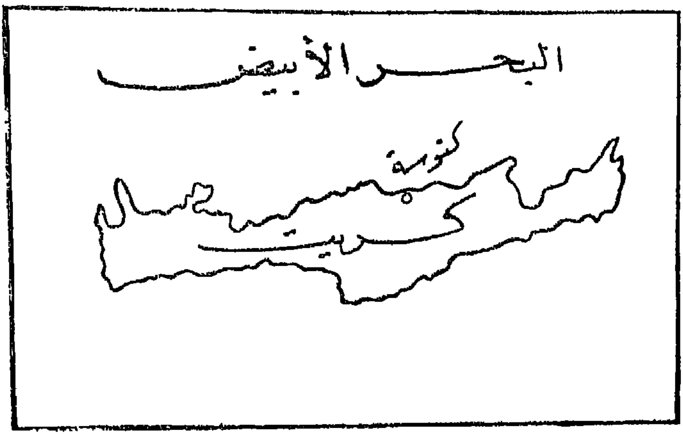
(شكل ١٠) القصر الملكي في كنوسة

دفع الأثينيون قسطين من هذه الضريبة الفظيعة . ولكن حينما حل موعد القسط الثالث ، تطوع تسيوس ابن الملك إيجيوس ليكون أحد الضحايا . وصمم على قتل الوحش وتخليص رفاقه .

أبحر الشبان الأثينيون فى قارب ذى أشرعة سوداء رمزاً لرحلتهم المحزنة . ووعد تسيوس أن يغير الأشرعة السوداء بأخرى بيضاء أثناء عودتهم إذا استطاع ورفاقه ، بمعجزة ما ، أن يتخلصوا من المنطورس المتوحش .

وفى الليلة السابقة لموعد تقديم الضحايا ، أقيمت الحفلات الحزينة فى المسرح الضخم بقصر الملك مينوس ، وهناك رأت إبنته أريدنه ، الشاب الأثينى تسيوس فوقعت فى حبه . وفكرت فى وسيلة لتزويده بسيف ليقتل المنطورس وبكرة من الخيط لترشده إلى طريق الخروج من اللابيرنت بأمان .

وفى اليوم التالى ترك تسيوس الخيط ينساب خلفه ببطء كلما سار متعمقاً فى اللابيرينت . وفى وسط منعرجات القصر قابل تسيوس الوحش الشرير وقتله . ثم عاد الأثينيون مسترشدين بالخيط ، مسرعين إلى باب اللابيرنت وأبحروا



(شكل ١١) جزيرة كريت

فى الحال إلى بلاد اليونان ومعهم أريدنه . غير أنهم نسوا فى نشوة فرحهم أن يغيروا لون الأشرعة كما وعدوا أهليهم من قبل .

وكان الوالد إيجيوس المسكين ، يراقب فى قلق شديد عودة ابنه يوماً بعد يوم . ولما أبصر أخيراً سفينتهم قادمة من بعيد وأشرعتها لا تزال سوداء ، ألقى بنفسه فى البحر وغرق ؛ وهذا هو سر تسمية ذلك البحر — كما تحكى الأسطورة — بالبحر الإيجى .

تداول الشعراء والمغنون من اليونانيين القدماء قصصاً كثيرة من هذا النوع . وراقت حكاياتهم عن الشجاعة والوحوش المخيفة ، لخيال الناس على مدى العصور . ولكن هل كانت كل هذه القصص محض أساطير ، أو أنه من الراجح أن تكون هناك بعض الحقائق الممزوجة ببعض الخرافات ؟

صورت الأساطير كريت على أنها مملكة قوية ، ساد أسطولها على البحر الإيجى والبحر المتوسط . وقيل إن ملوكها عاشوا فى قصور فخمة ، ذات أبواب من الذهب والفضة . وإذا فرضنا وجود جزء من ألف من هذه الصورة الشاعرية لجزيرة كريت ، فإنه لا بد أن تكون بعض آثار هذا الماضى العظيم باقية هناك ، لتراها أعين المحدثين .

لم يقم حتى عام ١٩٠٠ أى دليل على ذلك . هذا بالإضافة إلى أن كتب التاريخ قالت جميعها إنه لم توجد بأوربا حضارة حقة قبل عام ٨٠٠ ق . م . فقد سكنها قبل ذلك التاريخ قوم من المتبربرين ، وإنه إلى ما قبل ظهور

العصر الذهبي فى اليونان لم توجد حضارة من هذا المستوى فى كل أوربا .

ولكن ماذا نعمل والقصص القديمة تحتوى أحياناً بعض الحقائق ؟

إن الحكايات المتداولة عن الملك مينوس وشعبه كانت حقيقية . ووصف أسلحتهم وملابسهم وقصورهم لم يكن غامضا أو ناقصاً بل كان واضحاً ومفصلا . وهذا هو السبب فى أنه كان غريبا أن يهمل العلماء شأن الأساطير القديمة ببساطة ، دون أن يقدروا أن الشعراء الذين رووها ، ربما كانوا يصفون عالماً معروفا جيدا لديهم . . . عالماً من الحقيقة لا من نسج الخيال . ويبدو غريباً كذلك أن يتصوروا أن الحضارة اليونانية وصلت هكذا بسرعة إلى هذه الدرجة من الرقى دون أن تكون قد تطورت عن حضارة سابقة .

وسواء أكان ذلك غريباً أم غير غريب ، فقد كان هذا هو الشائع بين كل الناس ، إلى أن جاء صبح يوم ملىء بالأحداث من عام ١٩٠٠ ؛ وذلك حينما كشف

عالم الآثار الإنجليزى آرثر إيفانز الغطاء عن عظمة كريت وأخرجها من خبيآت الماضى المجهول ، إلى نور المعرفة واليقين . بهذا الكشف أوغل فى القدم تاريخ انبثاق فجر الحضارة الأوربية مدة تزيد على ألفين وخمسمائة عام .

ذهب السير آرثر أولا إلى كنوسه عاصمة كريت ليستوضح مدى صحة آرائه عن اختراع الحروف الأبجدية . وكان قراره أن يبقى بها وقتا قصيراً جداً ، لكن استثار فضوله،وجود بعض الكتل الكبيرة المحفورة من الحجر ، ملقاة هنا وهناك . وبينما هو كذلك فكر فى أن يحفر قليلا فى تلك المنطقة ، لا لشىء إلا ليشبع فضوله فقط .

ومع أنه بدا من المحال الظفر بشىء يؤيد تلك الحقيقة ، إلا أن معاوله اصطدمت بشىء ما على عمق بضع بوصات من سطح الأرض . وبعد ساعات معدودات من بدء الحفر وعلى عمق بضع أقدام ظهرت جدران بناء كبير قائم تحت سطح الأرض .

أعلن إيفانز أن الكشف عن هذا البناء الضخم يحتاج لمدة تسعة أسابيع من العمل المتواصل ، ولكنه كان مخطئا

فى هذا التقدير ، بمقدار نصف عمره . فلقد مضت أربعون سنة كتب فى خلالها إيفانز ستة مجلدات عن مستكشفاته وذلك قبل أن يتم الحفريات التى بدأها .

كان البناء الذى استكشفه إيفانز مدهشا حقا ؛ فهو قصر كبير فى حجم قصر بكنجهام الملكى فى لندن . والمساحة التى يغطيها أكثر من عشرة مربعات ، من المربعات التى تقوم عليها العمائر فى المدن الكبيرة . والبناء مستطيل ، وله فناء ضخم يغطى وسطه الأسمنت الأحمر . وبعض أجزائه لا بد أنها كانت على ارتفاع خمس طبقات ، لأن بقايا السلم الفخم لا تزال قائمة .

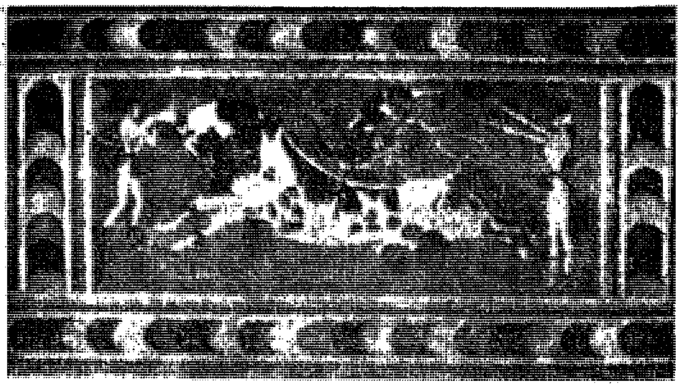
وتصميم القصر معقد جداً ، وبه كثير من الممرات الملتوية والمراقى العديدة ، أما طوابقه الخمسة ، المرتفع بعضها فوق بعض ، وممراته المسدودة وغرفه التى جاوزت الحصر ، فإن دلت على شيء فإنما تدل على أنه متاهة حقاً . ويرى على كثير من حجارته وأعمدته نقش يمثل البلطة ذات الرأسين وتسمى «لابريس Labrys » . والكلمتان : لابريس ولابيرنس Labyrinth قريبتا الشبه ، كما هو واضح .

استعاد إيفانز كل ما فى ذاكرته عن الأساطير القديمة ، وكتب يقول : إن هذا البناء الواسع الرحيب ، ما هو إلا أحد قصور التيه التقليدية ، ولا بد أن يكون هذا المبنى هو قصر الملك مينوس الذى حكم منه مملكته .

وكلما توسع إيفانز فى حفرياته ازداد اعتقاداً بأنه قد اكتشف حقيقة اللابيرنت ، الذى قيل إن المنطورس المخيف كان يعيش فيه . وعلى مذابح القصر وجد السير آرثر ، قرون النذور ، وهى قرون الثيران التى كانت تستخدم فى بعض الطقوس الدينية المينوية . كما وجد أيضاً نقوداً تحمل صورة المنطورس على أحد وجهيها ، وتحمل على الوجه الآخر صورة اللابيرنت .

والبرهان القاطع على وجود اللابيرنت ، نراه فى الرسوم الحائطية التى تزوق بها الجدران وهى حديثة التغطية بالجص ، بحيث تجف الألوان والجص معاً . وهذه الطريقة تحتفظ فيها الرسوم برونقها مدة طويلة من الزمن .

وأوضح هذه الرسوم الحائطية وأقربها صلة بالأساطير القديمة ، منظر كان فى ساحة الألعاب بالقصر ، يظهر فيه رسم



(شكل ١٢) بهلوانات الثور ... مثل رائع من الرسوم الحائطية

ثور واحد وثلاثة بهلوانات ، وشاب وفتاتان . ويبدو الثور في حالة هياج شديد ، في حين أمسك الشاب بقرني الثور وانقلب على ظهره . وتظهر إحـــدى الفتاتين واقفة في وضع الاستعداد ، رافعة يديها للإمساك بزميلها عند وصوله إلى الأرض . أما الفتاة الأخرى فتقف أمام الثور مباشرة ، وتكاد قرونه الحادة تمر من تحت ذراعيها . ترُى هل تستطيع أن تقفز فوق ظهر الثور كما فعل زميلها ؟ أم أن الثور المتوحش سوف ينطحها بقرنيه حتى الموت ؟ إنها لو أخطأت

فى تقدير المسافة أقل خطأ لضاعت حياتها . وهى تظهر هكذا فى الصورة معلقة إلى الأبد بين الحياة والموت .

وفى بعض رسوم حائطية أخرى ، تظهر جماهير من الرجال والنساء وهم يراقبون المناظر المروعة فى حلبة المصارعة . وكان الكريتيون مغرمين بهذه المناظر كغرام الإسبان اليوم بمصـــارعة الثيران . على أن هناك فارقاً بين النتيجتين . إذ تنتهى هذه اللعبة فى إسبانيا بقتل الثور بالسيف . أما فى كريت — حيث كانت استعراضاً للمهارة وخفة الحركة — فغالباً ماكانت تنتهى بموت الشاب الرياضى الشجاع .

وكثير من هذه الرسوم الحائطية ذات ألوان زاهية كيوم رسمت ، رغم أنها ظلت مدفونة آلاف السنين ، وقد تأثر بها إيفانز أيما تأثر . ومعظم هذه الصور تمثل حياة البحر ، وهى بذلك تدل على أهميته بالنسبة للكريتيين . وكتب إيڤانز عنها يقول : «إنها كانت لحظة مثيرة حينما أخرج إلى حاضرنا سر هذا الشعب المجهول الذى ظل أمداً طويلا مدفوناً فى عالم النسيان » . وهكذا عثر إيفانز على اللابيرنت مربض المنطورس .

وبنيت بهذا القصر ثلاث آبار ، عمق كل منهـــا

خمس وعشرون قدماً . ويحتمل أن كانت هذه الآبار سجونا مظلمة لأسراهم — ربما كان من هؤلاء الأربعة عشر شاباً من الأثينيين — وذلك إلى أن يحل دورهم فى الصراع مع الثور. وكان الهرب مستحيلا من هـــذه الحفر ذات الجدران المنحدرة الملساء .

ولم تكشف هذه الحفر المظلمة عن ماضيها المخيف . وإن ما نقوله بشأنها لايعدو أن يكون ضرباً من الحدس والتخمين . واعتقد كثير من الناس أن الشبان والفتيات فى كريت كانوا يدربون خصيصاً على هذه الرياضة الخطرة ، وكان شرفا عظيما لهم أن يتنافسوا فى هذا الملعب .

وما دام لم يصل لنا ما يفسر سر رسوم البهلوانات الثلاثة السابقة ، فلن نستطيع معرفة سرها الحقيقى ، ولكن مما لا شك فيه على الأقل أن هذه المباريات فى حلقة الثور كانت هى أساس أســطورة المنطورس ، الذى كان يعيش على لحوم الآدميين . وربما أجبر تسيوس وزملاؤه الأثينيون ، على الاشتراك فى هذه المباريات الخطرة مع الثور .

وتبين الحفريات أن القصر وجد منذ ألفى سنة وأن الناس كانوا يعيشون فى هذه البقعة قبل ذلك بخمسة آلاف سنة على الأقل وأنه بنى حول عام ٣٤٠٠ ق . م . ثم أصابه بعض التدمير حول عام ١٤٠٠ ق . م . ولما كان عمر القصر ألفى سنة فلا بد أن يكون مينوس أحد الملوك العديدين الذين حكموا فيه ، رغم أن الأسطورة لا تذكر حكاماً سواه .

ويرى إيفانز أن كل الحكام الكريتيين كانوا يدعون مينوس ، تيمنا باسم مينوس الأول الذى بنى أول أسطول فى العالم . وهذا بالضبط ما حدث فيما بعد عند الرومان حينما أضافوا إلى أسماء أباطرتهم اسم قيصر تيمنا باسم يوليوس قيصر . واليوم ، تعرف الحضارة الكريتية كلها باسم الحضارة المينوية ، نسبة لاسم ذلك الملك البحرى الشهير .

وفخامة القصر ، فى كنوسة لا تدع مجالا للشك فى أن كريت كانت قوية وغنية تماماً كما صورتها الأساطير . ومن أهم ما يلفت النظر هناك وسائل المجارى المائية . ذلك أن بعض المواسير الفخارية التى تحمل الماء والمخلفات كانت ضخمة جداً ، حتى إنها كانت تسع الرجل واقفا

بداخلها . وما زال هذا النوع من القنوات المـــائية مستخدما ، كما كان مستخدما منذ أربعة آلاف سنة . وقد وجدت بالقصر مواسير لمياه الشرب الباردة ، وأخرى لمياه الحمام الساخنة ، وهذا هو ما ننعم به اليوم فى بيوتنا الحديثة . ولم تبن حمامات ولم تستخدم أنظمة لتصريف المياه فى أوربا ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، تعادل ما عرف فى كنوسة . وقد استخدم السير آرثر فى وصف حفرياته كلمة « الحديث » مرات ومرات . ومن السهل معرفة سبب استخدامه لهذه الكلمة ، إذا عرفنا اهتمامه بوصف أنظمة المجارى المائية هناك . وقد استخدم أيضاً كلمة « الحديث » فى وصف كثير من الملامح المميزة لهذا القصر الرائع .

وكان عند الكريتيين ، على عكس غيرهم من القدماء ، إحساس قوىّ للمحافظة على الصحة العامة . فمنذ عدة آلاف سنة ، لم تفكر معظم الشعوب فى إلقاء القاذورات والمخلفات خارج أسوار مدنهم . وكان هذا — كما جاء فى الفصل الأول — من الأسباب التى أدت إلى تطمر

المدن بعد قرون طويلة . ولكن الكريتيين كانوا يتخلصون من متخلفاتهم بإلقائها فى حفر عميقة بنيت خصيصاً لهذا الغرض ، ويشبه ذلك ما يحدث اليوم فى بعض البلاد .

والذين بنوا كنوسة كانت عندهم بعض الأفكار الحديثة عن فنون العمارة . ولا بد أن القصر كان مكانا مبهجا للغاية بفضل ما تمتع به من الإضاءة والتهوية . وإذا قورنت منازل الكريتيين بمنازل أهل اليونان والرومان الذين عاشوا بعد الأولين بوقت طويل لوجدنا أن منازل الأخيرين سيئة التهوية قليلة الضوء .

وقام إيفانز أيضاً بكشف مدهش ، فى الجناح الخاص بالمخازن من القصر ؛ فهناك وجد عدة أنواع من القدور الخزفية الضخمة التى كانت تحتوى على زيت الزيتون : وبعض هذه القدور كانت أطول من الإنسان . ويستدل من هذا على أن الحياة كانت رغدة فى قصر كان يحتاج للاحتفاظ لديه بمثل هذه الكميات الضخمة من الزيت .



(شكل ١٣) فى هذه القدور الضخمة ... كان يخزن زيت الزيتون

والملوك الأفوياء يملأون عادة قصورهم الفخمة بكثير من الأدوات الثمينة ، مثل الصحون الذهبية والتيجان المرصعة بالجواهر والأسلحة المزخرفة الدقيقة الصنع . ومن المؤكد أن حاكما لمملكة غنية كمملكة كريت ، لا بد أن يكون قد أحاط نفسه بكل ما يمكن من وسائل الرفه والعيشة الناعمة .

وقد توقع السير آرثر أن يكشف تحفا نادرة فى كنوسة ، ولكن من المؤسف أن إيفانز لم يجد سوى شيء واحد من هذه التحف ، هو لوحة للعبة ملكية كان يتسلى بها الملك مينوس مع من يريد منافسته . وهى تشبه لعبة الشطرنج أو « السيجة » عندنا . وهى مكفتة تكفيتا رائعا بالذهب ، ومطعمة بالفيروز والعاج والزجاج .

وكشف فيما كشف عرش الملك مينوس . وهذا العرش العظيم الذى يعد أقدم العروش فى أوربا كان مصنوعاً من كتلة واحدة ضخمة من الرخام . ولكنه لم يجد معه صولجانا مرصعاً بالجواهر ، ولا سيفاً بمقبض ذهبى

كما تغنى بذلك الشعراء القدامى . ترى ماذا حدث لهذه الأشياء الجميلة ؟

إن السير آرثر يعرف الجواب المعقول ؛ فقد كشف أن التخريب أصاب هذا القصر حوالى عام ١٤٠٠ ق ٠ م ، ذلك أن قوماً لا تعرف شخصيتهم معرفة دقيقة ، غزوا مملكة كريت وخربوها . ووجد إيفانز آثاراً لحريق كبير أصاب كل مكان . ولا بد أن كميات الزيت الضخمة المخزونة فى الممرات السفلى ، قد زادت لهيب النار المخيفة التى أشعلها الفاتحون .

وهناك دلائل يستفاد منها أن تخريب القصر جاء فجأة . وأن أهالى كنوسة لم يبنوا حصوناً قوية لصد أعدائهم . ولم يحتموا وراء الأسوار الحجرية ، بل اعتمدوا على « أسوار من الخشب » هى سفنهم الحربية العظيمة ، وكانوا فى هذا كالبريطانيين فى الأزمنة الحديثة . ولكن ليس ببعيد أن يكون لانقضاء ألفى سنة من الأمن التام ما يجعل البحرية المينوية عديمة الأهمية . وعلى أية حال فلم يكن أحد يتوقع غزو القصر مطلقاً .

وعثر المستكشفون فى مكان صنع التماثيل ، على زهرية من الحجر فى مراحل تمامها الأخيرة ، وبجوارها أدوات الحفر كما تركها الفنان وقت أن داهمه الغزاة فى ذلك اليوم البعيد . كما وجدوا جرة مملوءة إلى نصفها بالماء ، ملقاة بجوار قدر كبيرة من القدور الضخمة ، ولعلها سقطت من أحد الخدم الخائفين . وربما ترك كل من الخادم والمثال عمله ليحمل سيفاً أو رمحاً ضد الغزاة القادمين من البحر ، وربما أجبرتهم النيران المشتعلة على الهرب . وأيا ما كان السبب فإن الزهرية والجرة التى إلى جوارها ، تحملان الدليل الصامت على الهجوم المفاجئ .

وقد تخربت أجزاء عدة من القصر ، وأصيبت الرسوم الحائطية الجميلة بفعل النار الفظيعة . ولكن علماء الآثار رغم أسفهم لإشعال تلك النار وللخسائر التى نجمت عنها ، يذكرون لها بعض الفضل فى حفظ أشياء أخرى . والقول بأن النار حفظت شيئاً يبدو غريباً ، ولكن هذا هو ما حدث فعلا

فلولا هذا الحريق الكبير ما حصلنا على شىء من الصناعات



(شكل ١٤) تمثال جميل من الخزف لأحد آلهة كنوسة

المعدنية التى لا بد أنها كانت كثيرة فى كنوسة قبل الغزو . فقد انهارت أسقف بعض غرف القصر بسبب الحريق قبل أن يصل الغزاة لنهب محتوياتها ، ووجد الكاشفون خمس سلاطين فاخرة من البرونز مدفونة تحت سقف الغرفة المنهار . وهذه السلاطين هى كل ما تبقى لنا لنعرف منـــه مدى الدقة والجمال الذى استطاع صناع المعادن القدماء أن يصلوا إليه فى صناعتهم .

وفى حجرة أخرى ، وجد إيفانز ألفى لوحة صغيرة من الطين عليها كتابات كريتية قديمة . فلو لم تلفح حرارة النار الشديدة هذه الألواح وتحرقها حرقاً شديداً ، لتفتت الطين من أمد طويل . ولبقيت معظم هذه اللوحات دون أن يستطيع أحد قراءتها . ولكن شابا إنجليزياً استطاع منذ بضع سنوات أن يفك رموزها ويكشف عن أسرارها ، وهذا الشاب تلميذ سابق لإيفانز ، وخبير فى الكتابات القديمة ، اسمه « ميشيل فنتريس » . وقد نجح ميشيل فى عمله الشاق باستخدام الطرق التى تستخدم عادة فى حل رموز الرسائل السرية . ومعظم اللوحات التى تمت قراءتها حتى الآن ، تدل على أنها

كانت قوائم للمواد التموينية . وهى لم تزد معلوماتنا كثيراً عن هذا العالم الذى اختفى قبل أن يصبح توت عنخ آمون ملكا على مصر .

وعلى كل حال فقد توصل علماء الآثار لمعلومات كثيرة عن المينويين من دراستهم لبقايا القصر ورسومه الحائطية الجميلة . فعرفوا الكثير عن هؤلاء القدامى الذين كانوا يوماً ما ينعمون بعيش رغيد ، ويغمر حياتهم البشر والسرور . ولكننا نسأل أنفسنا فى عجب عن حقيقة الدور الذى قاموا به فى الأساطير القديمة التى انحدرت إلينا من ذلك الماضى البعيد .

إن كل من يرى الصور الملونة فى رسومهم الحائطية المملوءة بالحيوية يمكنه ببساطة أن يعيد ، فى خياله ، هذه المناظر إلى الحياة .

ففى أحد هذه الرسوم الحائطية نرى مجموعة مكونة من ثلاثين رجلا يتحدثون وهم وقوف ، وقد اتشح كل منهم بمئزر وتمنطق بحزام من الفضة أو الذهب . أما وجوههم فذات لون بنى مائل إلى الحمرة ، وشعورهم

سوداء طويلة ، ولكنها لفتت على شكل عرف يتوج رؤوسهم . وفى رسم آخر نرى مجموعة من الشباب يقذفون الأعداء بالرماح . وفى رسم ثالث نرى صبيا صغيرا يجمع الزعفران ، والصّبى يشبه كثيراً صورة مشهورة باسم صورة « الصبى الأزرق » من أعمال المصور الإنجليزى جينزبره . ومن الغريب أن يلون الفنان هنا لون جلد الصبى باللون الأزرق دون البنى المائل إلى الحمرة الذى ألف الفنانون المينويون استخدامه فى رسم الذكور من الأشخاص .

وأبهج هذه الرسوم الحائطية ، مجموعة الرسوم الصغيرة التى تبين مسرح القصر ، حيث كانت تقام ألعاب السرك والرقص والملاكمة والمصارعة ومصارعة الثور بالذات . ونكاد نحس ، ونحن ننظر لبعض هذه المناظر ، أننا نشاهد فعلا الجمهور الذى شاهد هذه الاحتفالات فى الليلة التى وقعت فيها اريدنه فى حب تسيوس ، أو كأننا نشاهد الجمهور الذى كان يرقب صراع الشابات والشبان الأثينيين فى حلقة الثور . وعلى أية حال فإن هذا الجمهور المتزاحم يبدو مليئا بالحياة فى أعيننا .

وتتسع الساحة الكبيرة لخمسمائة شخص تقريباً . وبعض هؤلاء يجلس على مقاعد فى صفوف كتلك التى تراها اليوم فى ملاعب كرة القدم ، وهناك مقاصير خاصة بالسيدات ، كما توجد مقصورة كبيرة للملك .

وتشع رسوم النساء بالبريق من شفاههن القرمزية وحليهن الذهبية وملابسهن الأرجوانية والصفراء أو الزرقاء . وهذه الملابس ، بفتحاتها الواسعة حول الرقبة وأكمامها المنتفخة وخصورها النحيلة الدقيقة ، تكاد تكون من ملابس عصرنا . وشعورهن الطويلة السوداء المتموجة قد عقصت بعناية فوق جباههن ، وسويت وقوست بملقاط نحاسى ، حتى لنسأل أنفسنا : كم من الوقت يا ترى قضينه أمام المرآة البرونزية ليتأكدن من أناقتهن .

وتبدو رسوم الأشخاص منحنية إلى الأمام ، وكأنها مهتمة بمشاهدة العرض ، وتلبس الثيران المقدسة ملابس الاحتفالات ، وهى من الشباك الحمراء أو الأرجوانية . والعيون كلها مصوبة نحو المتسابقين . والفتيات يلبسن كالفتيان ، ولا يميزهن عنهم سوى العقود الملونة

والأساور والأشرطة الزرقاء والحمراء التى تحيط بجدائلهن .

ولا يعلم أحد كم من هؤلاء الفتيات والفتيان ذوى الملابس البهيجة أضاعوا حياتهم لتقديم مفاجأة للجمهور . وربما لن نعرف على الإطلاق إلا إذا عثرنا يوماً ما ، على مزيد من الألواح الطينية ، وهى عندئذ ستكون لنا « كخيط اريدنة » الذى يقودنا إلى خارج اللابيرنت ، ويخلصنا من جهلنا التام بماضيه .

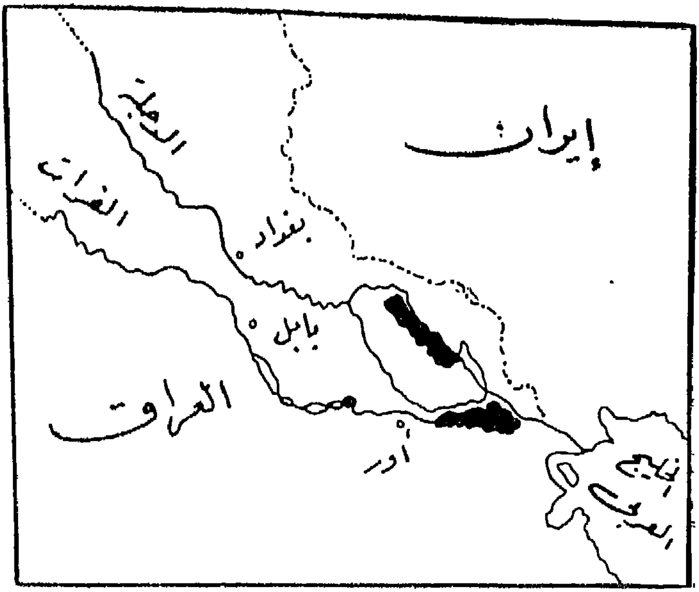
الفصل الخامس

الكتاب المقدس ومعاول التنقيب

تقول التوراة إن إبراهيم ، عليه السلام ، ولد فى مدينة أور الكلدية فمن مسقط رأسه « أور » هذه ، خرج أول رجل على الأرض ، يعترف « بوحدانية الله » . ولكن أين توجد مدينة أور الكلدية ذات الآثار الغامضة التى ولد بها إبراهيم ؟ إن الخرائط الحديثة لم تحدد موقعها ، ولم يصل علمها لأحد من الباحثين المحدثين .

نحن نعلم أن بلاد كالديا — مهد الحضارة — جزء من الأرض التى وصفتها قصة الخليقة بأنها أرض خصبة تنتج الحشائش والأعشاب والحبوب . . . وأشجار الفاكهة . وفى يوم من الأيام كانت وديانها حافلة بالمدن ، أما ملوكها الأقوياء فقد خاضوا معارك شديدة من أجل السيطرة والعظمة .

ولكن كل آثار هذا الماضى العظيم فنيت منذ قرون



(شكل ١٦) أرض الرافدين ...
مهد حضارة الآشوريين والكلديين

طويلة قبل الأزمنة الحديثة ، ولم ترد الأسماء الغريبة لهذه المدن الأسطورية إلا فى الكتاب المقدس (التوراة) . فإذا كان سكانها بشراً حقا ، فإن العالم نسيهم منذ زمن طويل .

وحتى أرضهم الخصبة قد اختفت ، وحقول القمح والشعير التى أنضجتها الشمس الدافئة يوما ما ، أصبحت هى

الأخرى سهلا منبسطا مهجوراً ، تلفح وجهه الحرارة الخانقة . وهنا وهناك تتخلل الصحراء القارسة تلال ضخمة مملة ، كأنها نتوءات فى سطح الأرض .

وكان العرب — فيما بعد — يرعون إبلهم قريباً من ذلك المكان دون أن يعلموا عن هذه التلال الضخمة إلا القليل ، لأنها أصبحت منذ عهد أجدادهم الأقدمين ، مكاناً عادياً ومألوفاً من الأرض . ومصادفة ، تشكك الرحالة والمسافرون من البلاد الأخرى فى أمر هذه التلال ، ماذا عسى أن يكون مدفونا تحت هذه الأكوام الضخمة من الأتربة والرمال ؟ ؟

بدأ علماء الآثار يجيبون عن هذا السؤال منذ قرن مضى ؛ إذ وجدوا مدنا قديمة فى جوف هذه التلال . مدنا جاء ذكرها فى الكتاب المقدس وضاعت من ذاكرة لإنسان قرابة عشرين قرنا من الزمان .

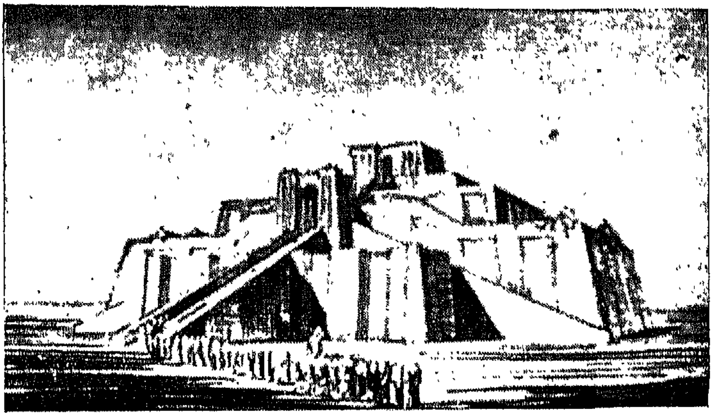
وتقع هذه المدن فى إقليم ميزوپوتاميا — ومعناها « ما بين النهرين » — لأنها تقع فى الحقيقة بين نهرين عظيمين ، هما الدجلة والفرات . وقد كشفت هذه الأرض

التى كانت خصبة يوما ما ، عن تاريخ الإنسان منذ خمسة آلاف سنة

ولا بد أن هناك كثيراً من مدن التوراة ، لا تزال مدفونة تحت الأرض التى يتوق علماء الآثار لكشفها . ويتمنون أن يثبتوا أن هذه المدن لم تكن أسطورية أبداً ، وأنها كانت حقيقية مثل منف وبعلبك ، أو القاهرة ودمشق .

هكذا بدأ البحث عن أور . . . بدأ فى بلاد ما بين النهرين ، عند منتصف الطريق بين بغداد والخليج العربى وفى البقعة التى تسمى الآن العراق . وقصة البحث عن مدينة أور هى عبارة عن قصة عناصرها : قلعة ، ومدينة ، وجبانة ، وفيضان .

بدأت قصة القلعة عام ١٨٥٤ م ؛ فنى تلك السنة طلب المتحف البريطانى من قنصل بريطاليا ج . أ . تيلور أن يبحث للمتحف عن أية علامات تدل على وجود آثار قديمة فى جنوب العراق ، وخرج تيلور للبحث فى قافلة كبيرة تضم الجمال والحمير والحفارين وأدوات الحفر .



(شكل ١٥) تخطيط للزيجورات

وأمله أن يكشف أحد هذه التلال الغامضة ، القابعة فى الصحراء .

وكان العرب يدعون ذلك التل « تل المقيّر » . ومنذ قرون بعيدة كان الفرات يفيض قرب ذلك التل المحدّب الكبير ، ثم غير النهر مجراه فاختفى نخيل البلح وأشجار التين التى كانت تقى المسافر فى الماضى وهج الحر .

وتفقد تيلور ذلك التل الهائل من التراب والآجر الذى يرتفع نحو ثمانين قدماً . أى ما يقرب من ارتفاع

مبنى يبلغ عشرة طوابق . وتمكن تيلور أن يعد أربعة مستويات مختلفة ، فكان ارتفاع أسفلها ثلاثين قدماً بالنسبة للوادى المحيط بها . وتسلق تيلور المنحدر الحجرى الذى يربط المستويات الأربعة ، وعند القمة نظر حوله وأخذته الحيرة من أين يبدأ ؟

ولسوء الحظ كان علم الآثار لا يزال علما حديث العهد ، ولا توجد هناك قواعد يسترشد بها الشاب فى عمله . وانحصر هم العلماء فى ذلك الوقت فى الظفر بأشياء يودعونها المتاحف ويتفاخرون بها . ولم يكونوا قد بدءوا بعد فى وقاية وحفظ الآثار القديمة التى كشفت فعلا .

وأخيراً صمم تيلور على أن يحفر حتى قلب ذلك التل ، آملا أن يجد كنزاً مدفونا هناك . وأمر رجاله من الوطنيين أن يحفروا فى أعلى قمة لهذا التل العظيم . فسقطت آجرة فى إثر آجرة ، وبدا أن « تل المقيَّر » الذى قاوم الزمن وتقلبات الشمس وزحف الرمال ، أخذ يتهاوى بيد إنسان ، كما أقامته فيما مضى يد إنسان ! ؟

واستمر تيلور فى العمل مدة سنتين تحت حرارة

الصحراء المحرقة . وكل ما عثر عليه كان بضع لوحات طينية محفور عليها نوع غريب من الخط . أرسل القنصل الشاب هذه اللوحات إلى المتحف البريطانى بلندن ؛ وهناك ظلت منسية حيث تراكم عليها التراب ، وهى فوق أحد الرفوف ، كما حدث بالضبط لقصص المايا التى كتبها الأسقف دى لاندا منذ زمن طويل فى إسبانيا . وفى الحقيقة ، لقد مرت خمس وسبعون سنة قبل أن يعرف العالم قصة ما أفصحت عن سره الألواح الطينية .

وبعد أن توقف تيلور عن العمل ، بقى تل المقير دون أن يتعرض له أحد . ولم يؤنسه فى هذه الأرض الخلاء البعيدة عن العمران سوى مخلوقات الصحراء والرعاة العرب .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى ، عسكرت هناك فى السهل الفسيح بعض الفرق البريطانية ، ومنذ ذلك الحين لم يعد « تل المقير » يرتفع إلى السماء ثمانين قدما ؛ إذ عاد إليه التخريب الذى بدأه تيلور . فقد فعل الجو فعله ولكن يد الإنسان خربت أكثر . واستغل العرب القريبون

والبعيدون التل كمورد رخيص للآجر . وأخذوا منه كميات كبيرة ، حتى إن مستوياته الأربعة التى كانت واضحة يوماً ما لم يعد لها وجود . وأصبح فى استطاعة الفارس أن يمتطى حصانه ، حتى قمة الخرائب القديمة .

ومن حسن الحظ أن أحد الضباط البريطانيين هنالك كان يعمل بالمتحف البريطانى قبل الحرب ، فأسرع بالكتابة إلى لندن يبلغها أنه يعتقد فى وجود بناء قديم مدفون تحت هذا التل العجيب . وأخيراً بدأت تتكلم اللوحات الطينية التى كساها التراب ، وهى ملقاة على أحد الرفوف فى المتحف البريطانى .

كانت هذه اللوحات الطينية تحمل كتابة من نوع غريب ذى حروف مثلثة غريبة الشكل ، ولذلك سميت بالخط المسمارى ، لأنها على شكل المسمار (أو الاسفين) . اخترع هذا النوع من الكتابة قوم غير معروفين ، يسميهم العلماء « السومريين » أو ذوى الرءوس السوداء ، وذلك بسبب سواد شعر رءوسهم . ونعرف الآن أن السومرية هى أول لغة مكتوبة ظهرت على وجه الأرض .

ولم يكن لدى السومريين حجر أو ورق ، فنقشوا كتاباتهم بالضغط على لوحات من الطين اللين ، وقد استخدموا فى الكتابة طرف عود من الغاب ، كنوع من الأقلام . وليحتفظوا بهذه الكتب أو هذه الكتابات ، جففوا اللوحات الطينية المكتوبة فى الشمس ، أو أحرقوها فى الفرن ، لكى يكون لها قوام صلب .

ولم يستطع العلماء قراءة الخط المسمارى لمدة طويلة ، وإن درست بعض أمثلة منه فى نهاية القرن الثامن عشر . وعلى أية حال فقد مضت مائة عام أخرى ، قبل أن يستطيع العلماء فهم هذه اللغة فهماً تاماً .

وكان تعلم قراءة هذا الخط المسمارى يعترضه صعوبات لا يمكن تصديقها لسبب وجود عدة أنواع من ذلك الخط المسمارى . فقد استخدمه السومريون والبابليون والأشوريون والفرس خلال مدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة . بل إن العلماء لم يعرفوا الوضع الصحيح الذى يجب أن تكون عليه هذه اللوحات وقت دراستها . ترى . . هل تقرأ هذه الكتابة من أعلى إلى أسفل ؟ أوهل تقرأ من اليسار

إلى اليمين كالإنجليزية ، أو من اليمين إلى اليسار كالعربية ؟ ولم يوجد هناك حجر كحجر رشيد ، ليكون مفتاحاً لهذه المشكلة المحيرة ، كما حدث عند فك رموز الهيروغليفية .

ومن الغريب ، ورغم كل هذه الصعوبات ، فقد بدأ اثنان مختلفان فى حل هذه الرموز فى وقت واحد تقريباً ، وكان الاثنان يعملان بعد تاريخ هذه الكتابة بثلاثة آلاف سنة . ومن الطريف أيضاً أنهما عملا بعيداً جداً عن أرض السومريين ، كما أن أحدهما كان بعيداً عن الآخر .

وأحد هذين الرجلين مدرس ألمانى ، فى السابعة والعشرين من عمره ، يدعى جورج جروتفند ، وقد ترجم عشرة حروف من الخط المسمارى عام ١٨٠٢ م .

أما الرجل الآخر فهو ضابط بريطانى يدعى هنرى رولنسون . وفى نفس الفترة التى كان جروتفند يعمل فيها ، كان رولنسون أيضاً قد عرف معنى بعض الحروف . ثم أوفد رولنسون بعد بضع سنين إلى بلاد فارس ، حيث تمكن من رؤية كتابات مسمارية حقيقية . وفى عام ١٨٣٥

استطاع رولنسون ، بوساطة البكرة والحبل ، أن ينزل على سفح هضبة شديدة الانحدار . وهناك وجد كتابة ضخمة بثلاث لغات محفورة على سـطح الجبل نفسه . ونقل رولنسون الرموز المحفورة هناك منذ أكثر من ٢٣٠٠ عام وهو معلق فوق الأرض بشكل خطر ، متحملا في ذلك الآلام . وبعد سنوات عدة من البحث والدرس استطاع أخيراً أن يقرأ هذه الكتابة . وكانت عن ملك من ملوك الفرس الأقدمين .

وهكذا ، مع نهاية القرن التاسع عشر ، وبفضل نبوغ مدرس ألمانى وضابط بريطانى ، استطاع علماء العالم كله أن يقرأوا المكتوب على اللوحات الطينية .

وأخيراً . . ماذا عساها أن تكون إذن قصة ألواح « تل المقير » ؟

لقد كتبت هذه الألواح من ٢٥٠٠ سنة ، قبل أن يرى بتلر هذا التل . وكان كاتبها هو آخر ملوك بابل ، واسمه نابونيدس ، وقد حكم فى بابل حول عام ٥٥٠ ق . م .

وقد سمى نابونيدس هذا التل المرتفع باسم غريب هو « الزيجورات » ، وكان هذا الزيجورات قديماً وفى حاجة إلى الإصلاح ، حينما قدم نابونيدس إليه أول مرة ؛ وكتب الملك نابونيدس فى هذه اللوحات الطينية يقول :

« لقد أعدت هذا الزيجورات إلى حالته السابقة ورممته بالآجر والملاط » .

وهذا الملك الذى رمم الآثار القديمة لا بد أنه كان أحد علماء الآثار الأول فى العالم . وكم يكون حظاً سيئاً لو أن بتلر عالج الزيجورات دون سابق عناية به . . لكن نابونيدس ، كعالم بحق ، سجل اسم المشيد الأصلى لهذا البناء ، وهو الملك أور — نمّو . كما عرّف المكان باسم « أور » أيضاً . وأخيراً أيمكن أن تكون هنا مدينة أور التى ورد ذكرها فى التوراة ؟ أتكون هذه المدينة هى عاصمة السومريين الذين لا نعرفهم ، والذين ابتكروا الخط المسمارى ؟

لا غرو إذن أن يكون المتحف البريطانى تواقا إلى معرفة الكثير . ولكن عدم توافر المال اللازم ، حال

دون القيام بعمليات الحفر حتى عام ١٩٢٢ م ، وفى تلك السنة اجتمعت حشود المتحف البريطانى ومتحف جامعة بنسلفانيا . وكان قائد الحشد عالم أثرى إنجليزى فى الثالثة والأربعين من عمره ، هو السير ليونارد وولى . وأخذت الفرق تعمل فى الموسمين الأول والثانى فى « تل المقير » الذى أطلق عليـــه نابونيدس اسم « زيجورات » .

ومنذ ذلك الوقت تأكد علماء الآثار أن الزيجورات هو نوع من الأبراج المبنية على شكل طبقات أو درجات ، وأنه جزء من المعبد السومرى . وقد لونت الدرجتان الأوليان باللون الأسود ، دلالة على ظلام العالم السفلى . والدرجة الثالثة حمراء كلون الأرض . أما المعبد الموجود عند القمة فقد غطى ببلاطات مطلية باللون الأزرق ، لون السماء . وسطح هذا المعبد ذهبي اللون ، كلون الشمس ، وكان السومريون يسمون هذا المعبد « السماوات » .

ومن الحقائق الغريبة أن السومريين كانوا دائماً

يضعون مزاراتهم المقدسة على قمم هذه الأبراج العالية . ولا يعلم أحد السبب فى هذا ، ولكن يعتقد معظم العلماء أن ذلك راجع إلى إقامة السومريين فترة طويلة في أرض كثيرة التلال ، قبل استقرارهم فى أور . وكانوا يصورون آلهتهم دائماً واقفين فوق الجبال . واعتقد السومريون — نتيجة لهذا — أن الحياة كلها جاءت من الجبال . والكثير مما وصلنا من نماذج الفن السومرى التى عندنا الآن ، من الحيوانات التى تسكن الأقاليم الجبلية كالخراف . وهناك أدلة أخرى على أن كل درجة من درجات الزيجورات كانت مزروعة يوماً ما بالأشجار ليبدو البرج كله كالغابة الجبلية .

وعقيدة عبادة الآلهة القائمة فى أماكن مرتفعة نجدها بين سكان البلاد الجبلية . ولكن حينما استقر السومريون في سهول ما بين النهرين المنبسطة كان عليهم أن يبنوا هذه الأبراج المرتفعة ، وهذا بالضبط هو ما فعلته جماعات المايا حينما جاءت إلى يوكتان وأقامت معابدها على قمه أبنية كالأهرامات . ولم يفعل السومريون

أكثر من بنائهم مرتفعات صناعية من الملاط والآجر سموها بالزيجورات .

وقد وجـد « وولى » كتابات تقول إن زيجورات « أور » بنيت حول عام ٢١٠٠ ق . م . وكانت جزءاً من معبد ننّار ، الإله القمر ، ومعبد ننّار — الذى هدمه تيلور — كان يتوج يوماً ما البرج الضخم المبنى من الآجر . والحقيقة أن جبل الإله هذا كان جميلا جداً منذ أكثر من أربعة آلاف سنة ، حين كانت الأشجار الخضراء والحدائق المعلقة تكسو شرفاته . وفى أيام العبادة كان رجال الدين ، فى ثيابهم الرسمية ، يصعدون السلم الواصل بين الأرض والسماوات ، ويحملون معهم تمثال ننّار ، ويمرون بالحوائط الآجرية الملونة حتى يصلوا إلى القمة . وهناك يدخلون المعبد الأزرق المذهّب ، الذى يبدو كالجوهرة ، وهو يرتفع هكذا فوق السهول والوديان .

وقد كشف « وولى » أربعة معابد أخرى مجاورة للزيجورات ، لأن ننّار كان أحد آلهة السومريين ؛ فقد كان الإله الخاص بمدينة أور ، وكان راعيها المقدس .

وأما أقوى آلهة سومر الأربعة ، فهم إله البحار ، وإله السماوات ، وإله الهواء ، والإلهة الأم العظمى .

وكان القدماء يعتقدون أن آلهتهم يتصرفون كالناس . فكان الناس يقصدون المعابد ، حيث الآلهة ، بالطعام والجعة والنبيذ ثلاث مرات فى اليوم ، وكانوا يعتقدون أن لآلهتهم عائلات ، وأنهم يذهبون للحرب والقتال ، بل إنهم يخافون كما يخاف البشر تماماً .

وحينما تم كشف الزيجورات وما حولها من معابد ، كان علماء الآثار قد عرفوا الكثير عنها . وبالرغم من التخريب الذى أحدثه تيلور ، فإن الزيجورات فى « أور » تعتبر من خير الأمثلة الأثرية التى تتمتع بالحفظ والرعاية البالغين من بين العالم .

ولكن ماذا هناك عن المدينة ، والجبانة والطوفان ؟

لا شك أن هذه المدينة هى مدينة أور ، التى لم يعثر وولى ومساعدوه بعد عليها ، رغم ورود ذكرها فى التوراة . لقد وجدوا برجا ومعابد وكتابات عن

المدينة ذاتها ، ولكن أين المنازل والشوارع ؟ ... من المؤكد أن يكون عدد كبير من المتعبدين قد عاشوا قريباً من معابد الآلهة الجميلة .

أتذكر الأسطورة الخيالية التي تحكى قصة الأميرة الجميلة النائمة من أثر تعويذة سحرية ، وأن لا شيء يوقظ الأميرة من نومها سوى قبلة من الأمير الجذاب ؟ إن قصة مدينة أور ، تحكى قصة الحضارة النائمة المنسية من العالم طوال آلاف السنين . إنها قصة مملكة كانت تنتظر معولا بصيرا في يد عالم من علماء الآثار ليوقظها بعناية من نومها الذى دام قرونا طويلة . وقد حرر السير ليونارد وولى مدينة أور من سلطان تعويذتها السحرية . والآن . . . تستطيع الجدران المتهدمة التي عاشت طويلا أن تجيب في صمت عن استفسارات سائلها الحديث .

وقد تم كشف مدينة أور تحت تل منخفض ، يبعد قليلا عن برج الزيجورات . ويبدو واضحاً أن الناس عاشوا هناك أجيالا عدة ، لأن التل مكون من طبقات

عديدة ، وأن المبانى فى كل طبقة بنيت فى عصر مختلف عن الآخر . وكان الملوك الجدد ، حينما يتولون زمام السلطة ، يعيدون تخطيط المدينة ، أو يضيفون إليها حسب آرائهم الخاصة ووفق الذوق السائد فى عصرهم . وكانت المنازل الجديدة تبنى فوق أساس المنازل القديمة . ولا شك أن هذه الطبقات المختلفة قد تكونت ببطء شديد .

ويمكن أن نتخيل بسهولة أن رفع الأنقاض عن مدينة مثل أور ، يعتبر أكثر تعقيداً من رفع الأنقاض عن مدينة تتكون من طبقة واحدة فقط ، كما هى الحال فى تشيشين اتزا . وقد امتدت مدينة أور مسافة أربعة أميال طولا ، وميلين عرضاً على التقريب . وكانت مدينة مسورة ذات شوارع عدة ، ضيقة كثيرة الالتواء . وكانت المنازل التى بنيت من طابقين من الآجر ، كبيرة ومريحة . احتوى بعضها على ثلاث عشرة أو أربع عشرة حجرة ، واشتمل كثير منها على فناء داخلى ذى أرضية مبلطة . وكانت الأبواب منخفضة وذات عقود .

وقد أدهشت هذه العقود السير ليونارد . فشعب المايا الخبير بفنون البناء ، لم يعرف استخدام العقود على الإطلاق . أما السومريون الذين سبقوا المايا بآلاف السنين ، فقد عرفوا جميع العناصر المعمارية الهامة اللازمة للبناء ، والتى يعرفها المعماريون المحدثون .

وقد استطاع علماء الآثار أن يقرءوا تقارير عن المعاملات القديمة ، مكتوبة على قطع مكسورة من الألواح الطينية . كما وجدوا ألواحاً أخرى ، عليها تمارين أو مسائل حسابية ، كتبها تلاميذ المدارس . ويمكنك أن تتخيل ما تكون عليه الدروس إذا ما نقشت على الطين اللين ، بدلا من كتابتها بالقلم الرصاص على الورق !

وقد حاول وولى أن يختبر الفرن الذى وجده فى أحد المنازل ، ورأى أنه لا يزال صالحاً للاستعمال ، وهكذا أشعل النار فى أقدم مطبخ فى العالم ..

لقد نجح المستكشفون إذن ، وأثبتوا وجود مدينة أور الواردة فى التوراة والتى كان أمر وجودها غامضاً يوماً ما ، ويستطيع المؤرخون المحدثون اليوم أن يرسموا

صورة حية للحياة فى هذه العاصمة القديمة ، بعد أن تم الكشف عن منازلها وشوارعها وكتاباتها .

غير أن أور لم تفصح عن جميع أسرارها بعد . ولا بد للمعول أن يتعمق أكثر وأكثر فى مجالات الزمن القديم ؛ إذ لا تزال فى مدينة أور صفحات جديدة ومنيرة من تاريخ الإنسانية ، بحاجة إلى أن تكتب وتنشر .

وفى ربيع عام ١٩٢٧ ، كشف وولى عن جبانة ضخمة تقع خارج أسوار المدينة بمقدار ٢٠٠ قدم ، وكانت تستخدم بين عامى ٢٩٠٠ — ٢٧٠٠ ق . م . وقد وجدت المقابر تحت أكوام المخلفات التى ألقاها المواطنون من فوق أسوار مدينة أور . واستمر العمال يحفرون إلى عمق كبير ، لأن طبقات الردم والأنقاض بلغت فى سمكها أربعين قدماً .

ومن حسن حظ المؤرخين وعلماء الآثار أن الأقدمين لم يحكموا تدبير شئونهم المنزلية . ويعتبر هذا بالنسبة للتاريخ القديم كاللغز الذى يتكون من مجموعة قطع .

صغيرة ، يكمل بعضها بعضا . فإذا عثر العلماء ، مثلا ، على قطع من الفخار ، وضمت هذه القطع بعضها إلى جانب البعض ، أمكن للعلماء أن يجمعوا الحقائق التى تصلح للتاريخ لمدينة قديمة . وقد تكون بعض أجزاء هذا اللغز أو هذه الموجودات ، قطعة صغيرة من البرونز أو قطعة من الكهرمان . والعثور على مثل هذه القطع قد يساعد علماء الآثار على وضع مخطط لطرق التجارة التى ارتادها التجار فى عصور ما قبل التاريخ . ولا شك أن الدراسة العلمية لكومة من سقط المتاع من العصور القديمة ، فى مقدورها أن تفيدنا بمعلومات كثيرة عن الماضى .

وتتألف جبانة مدينة أور من طابقين رئيسيين ، رغم أننا قد نجد أحيانا ست مقابر ، الواحدة فوق الأخرى . والمقابر السفلى هى الأقدم بطبيعة الحال . وعندما أوشك الموسم الأول للحفر على النهاية ، عثر سير وولى على ثلاثة اكتشافات مثيرة فى أرض أقدم المقابر . كان أول هذه الموجودات خنجرا ذهبيا رائعا ، له غمد من الذهب . أما الثانى فمجموعة رقيقة من أدوات

التجميل المصنوعة من الذهب . وهذا يؤكد لنا أن سكان مدينة أور كانوا يتمتعون بقسط كبير من النعمة والترف فى حياتهم .

وكان ثالث ما عثر عليه وولى ، أثراً غير مصنوع من الذهب ، وإنما صنع من الفخار ، وقد كسا جدران حفرة كبيرة ، وكان سليما كما تركه صانعوه الأول . أما أرضية الحفرة فمكسوة ببلاطات خشنة من الحجر الجيرى .

وقد أثارت هذه البلاطات دهشة سير وولى ، لأنه لا يوجد إطلاقاً أى نوع من الحجر فى دلتا الرافدين ، بل ولا حتى أى نوع من الحصى . إن جر هذه الأحجار من الصحراء التى تبعد نحو ثلاثين ميلا عن هذا المكان ، ما هو إلا نوع من الإسراف الذى لم يسمع به أحد . والحقيقة أن سير وولى كان تواقا لمعرفة ما يمكن أن يكون تحت هذ البلاطات .

ولكن كان عليه كعالم آثار أن يتذرع بالصبر ، لأن موسم الحفر كان قد انتهى ، وأصبح لزاماً عليه أن ينتظر

طويلا ، إلى أن ينتهى فصل الصيف الحار ، ليستطيع معرفة قصة هذه المقبرة . وكان السير وولى يفكر خلال شهور الصيف الطويلة فى أمر هذه البلاطات واحتمال كونها سقفاً لمقبرة ، لا أرضية للحفرة التى كشف عنها .

وفى الخريف عاد المستكشفون إلى العمل بآمال كبيرة . وكان ليونارد وولى على حق ؛ إذ كانت البلاطات الحجرية سقف مقبرة ذات حجرتين . أما أرضية الحجرتين فكانت مغطاة هى الأخرى ببلاطات من الحجر الجيرى ، حتى إن هذه المقبرة كانت من نوع لم يحدث أنهم وجدوا مثله من قبل .

كانت جميع المقابر التى كشفوها من قبل — وعددها ١٤٠٠ مقبرة — عبارة عن حفر بسيطة ، أما توابيتها فمن الخشب أو من الأغصان المجدولة أو من الطين . وفى بعض الحالات ، بلى الخشب وبليت الأغصان المجدولة ، غير أن الأرض التى حول التابوت كانت لا تزال تضم طبقة رقيقة جداً من تجزيعات الخشب ، أو الأغصان المجدولة . وإذا كان مجرد اقتراب هواء

التنفس يتلف هذه البقايا ، إلا أن الصور أظهرتها بوضوح كبير ، ولدرجة مكنت سير وولى من أن يصف بدقة الحالة الأصلية التى كانت عليها التوابيت فى البداية .

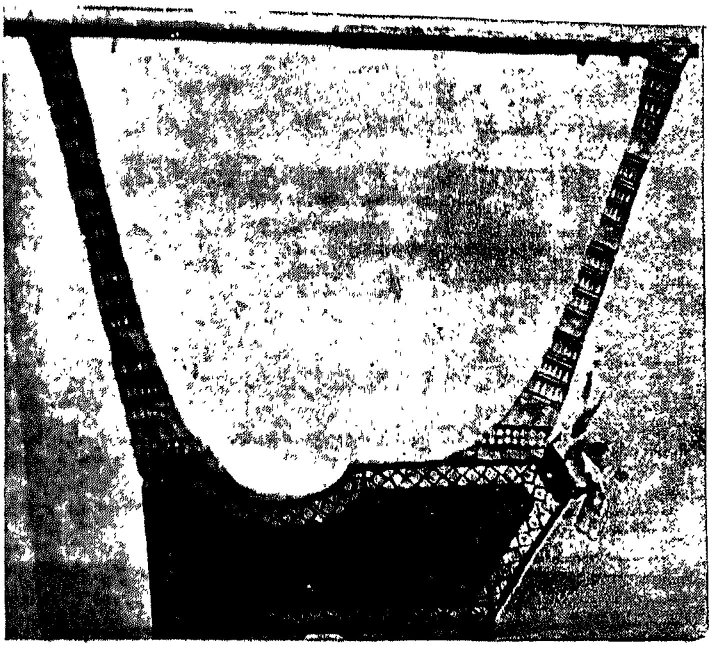
وزينت الأجسام التى كانت مدفونة فى هذه المقابر ، بالحلى والمجوهرات ، ووجدت معها أسطوانات من الطين كانت تستخدم كأختام لتوقيعات أصحابها . كما وجدت أيضا دبابيس وسكاكين دقيقة الصنع ، لأن أهل أور ، الذين عاشوا حول عام ٢٩٠٠ ق . م . ، كانوا مهرة فى صناعة المعادن ، وكانت المقبرة الحجرية أكبر بكثير من المقابر العادية ، حتى إن وولى اعتقد أنها لا بد أن تكون لأحد ملوك أور . لكنه لم ير فى هذه المقبرة الملكية الأشياء العجيبة النادرة المنتظر وجودها .

وعندما تعمق العمال فى الحفر فى سقف المقبرة ، لم يجدوا سوى بعض أوان من النحاس الأحمر ، وقطع متناثرة من تاج ذهبى . والحقيقة أن اللصوص قد سبقوهم إليها ، كما حدث بالضبط فى معظم مقابر الفراعنة

المصريين ، لأن سرقة المقابر كانت من أقدم الحرف في العالم .

وعلى الرغم من هذا فلم يرض وولى لنفسه باليأس ، واعتقد أنه لا بد أن توجد في فناء المقبرة الواسع بعض مقابر ملكية أخرى . وكان على صواب فيما اعتقد أيضاً هذه المرة ؛ إذ عثر على خمس مقابر ملكية أخرى كان قد نهبها اللصوص وخربوها . لكن بقى من تلك المقابر الكثير مما يسر العلماء ويسد ثغرات في تاريخ الإنسان . لم يعد هناك شك إذن في أن مملكة أور كانت ذات حضارة رفيعة ترجع إلى أربعة آلاف وثمانمائة سنة . ولا بد أن تلك الحضارة عاشت قبل ذلك بمئات السنين لكى تصل إلى هذا المستوى الرفيع .

أما الآثار القيمة التي عثروا عليها في المقابر الملكية فقد دلت على براعة التصميم والدقة المتناهية التي وصل إليها الفن السومرى . واشتملت هذه الآثار على قيثارة يزينها رأس ثور من الذهب . وقناع لإحدى الملكات مصنوع من الذهب أيضاً ، وهو على درجة من الإتقان



(شكل ١٧) الهارب ... آلة موسيقية وترية يزينها رأس ثور من الذهب

لا يمكن تصورها ، ورأس أسد من الفضة ، وكثير من الكؤوس الذهبية ، والسلاطين ، والأسلحة ، والأدوات الأخرى . ولم تكن هذه النفائس أقل روعة وجمالا من تلك التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون . ومع

ذلك فإن أور كانت أقدم من مقبرة توت عنخ آمون بأكثر من ألف سنة .

وكان هناك سر سوف يبهر الإنسان ، سر وشيك الظهور للعالم ، سر حفظته مقابر أور خمسة آلاف سنة تقريباً .

ففى شتاء عام ١٩٢٧ م . عثر العمال على حفـــرة كبيرة توصل إلى صف من المقابر الحجرية الخاصة بالملك أبارجى والملكة شوباد . وعثر فى الوقت ذاته تقريباً على خمسة أجسام يرقد الواحد منها بجوار الآخر . وربط فى وسط كل جثة خنجر من النحـــاس الأحمر ، ووضع بجوار رأس كل متوفى كأس من الفخار . وعلى أية حال فإن دهشة وولى كانت عظيمة حين وجد خمس جثث دفعة واحدة وبدون توابيت .

وحينما نقلت هذه الأجسام فوجئ علمـــاء الآثار بعشر جثث أخرى أسفل الأولى . وكانت الجثث هياكل لنساء وضعن بعناية على صفين ، وما زالت معهن أغطية رءوسهن وعقودهن الجميـــلة ، ووجد فى آخر الصف هيكل عظمى ، له تاج ذهبى لعازفة على القيثار ،

وكان عظم أصابعها لا يزال موضوعاً على حطــام قيثارتها .

ولكن ما هو سر وجود هذه الجثث الخمس عشرة معاً ؟ سوف نعرف السر فى لحظة ما ، ما دام المعول لم يكشف بعد عن آخر هذه المفاجآت المثيرة .

كان الكشف التالى هيكلين عظميين محطمين لحمارين بجوار العربة التى كانا يجرانها يوماً ما . وكان السائسان لا يزالان يمسكان باللجامين اللذين يمران من خــلال الحلقات الفضية . ثم وجد وولى بعد ذلك هياكل عظمية لستة من الجنود فى رتب متتالية ، ولهم خوذات وحراب من النحاس الأحمر . ووجد كذلك بقايا لعربتين من الخشب يجرهما زوجان من الثيران ومعهما سائساهما . ومع أن العربتين قــد تفتتتا ، إلا أن تصويرهما أظهر آثار العجلات الخشبية وآثار إطاراتها الجلدية . واستندت إلى الجدار الحجرى بالمقبرة الملكية أجسام تسع من سيدات البلاط ، وكانت لا تزال عليهن أغطية رءوسهن الذهبية البهيجة مع العقــود والأقراط ، ووجدت على أجسام



(شكل ١٨) تاج الملكة ... مثل من دقة الصناعة و براعة الفن

السيدات قطع من الصوف الأرجوانى المطرزة بالخرز ، وتناثرت بين هذه الأجسام وبين العربات مجموعات أخرى من الجثث ملأت أرض تلك المقبرة الكبيرة بالهياكل العظمية .

وقد نهب اللصوص مقبرة الملك ، ولكن علماء الآثار عثروا على جثة الملكة شوباد لم يمسها أحد داخل مقبرتها ، ذات الجدران الحجرية . وكان إلى جوار هيكلها العظمى كأس ذهبية ، أما الجزء العلوى من جسمها فقد غطى تماماً بكميات كبيرة من الجواهر الثمينة النادرة . وكان غطاء رأسها الذهبي الفاخر لايزال يزين جمجمتها ، بينما تحول شعرها الطويل المستعار إلى تراب ؛ وقبعت إلى جوار عربتها جثث وصيفاتها . وانتثرت على الأرض من حولها أعداد من الصحاف الذهبية تحمل الهدايا والقرابين . ووجد سير وولى مع هذا زوجين من الأطباق المحارية الشكل ، من الذهب والفضة ، وكانت لا تزال توجد بهما بقية من مسحوق أخضر ، تحتفظ به الملكة فى حقيبتها لتتجمل به فى الحياة الآخرة .

وطوال المواسم الثلاثة التى استغرقها الكشف عن الجبانة ، عثر المنقبون على كثير من حفر الدفن هذه ، فكان بإحداها خمس وستون ضحية ، وبالثانيـــة أربع وسبعون . وقـــد تساءل القائمون بالكشف : كيف تم ترتيب هذه الأجسام على هذا النحو حول جثث حكامهم ، وكيف كانت وسيلة موت أصحابها ؟

اعتقد وولى أول الأمر ، أنهم لم يموتوا عمداً لأن أغطية رءوس النساء الأنيقة التى كانت تتدلى منها أوراق وأزهار ذهبيـــة ، بدت وكأنها لم تمس أو تضطرب . أما الحيوانات فقد سقطت ساكنة تحت سروجها وإلى جوارها سيّاسها . وكان الجند يرقدون وكأنهم فى وضع « انتبـــاه » . واعتقد سير وولى فى النهاية أنهم ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر . وربما كانت الكؤوس الذهبية التى إلى جوارهم تحوى بعض العقاقير التى تسلم أجفانهم لنوم هادئ ، وهم فى الأوضاع الصحيحة .

ثم أهيل التراب على تلك الأجسام غير الواعية وتركت لتنام طويلا خلال العصور ، وهم إلى جوار جثث

ملوكهم الذين ضحوا بحياتهم من أجلهم .

ما أروع ذلك الجمع الذى أخذ زينته واكتسى بالملابس الرقيقة والجواهر النادرة ، واجتمع فى الحفرة المفتوحة فى انتظار الجنازة الملكية . إن باقى زوجات الملك ، وأوفى خدم الملكة ، وأخلص الجند ، وحرس القصر ، وسواس خيله ، كل هؤلاء ذهبوا مع الملك والملكة فى رحلتهم من هذا العالم إلى العالم الآخر

ولم يحدث أن عثر عالم آثار فى أى بلد من العالم على تسجيل لحفل مثل ذلك الحفل . وفى أور نفسها ، فإن مثل هذا العدد الهائل من الضحايا البشرية لم يذهب هكذا إلا تشريفاً للملكية ، لأن السومريين اعتقدوا أن الملك والملكة أشخاص أسمى من البشرية ، أى أنهم آلهة على الأرض .

والذى انتهى إليه سير وولى بشأن هذه الضحايا البشرية تفسير معقول ، ولكن أحداً لن يعلم الحقيقة على وجه التأكيد ، فقد أطبق الضحايا شفاههم منذ

أكثر من خمسة آلاف سنة وبقيت عظامهم فقط ، لتحكى لنا القصة .

وبمجىء ربيع عام ١٩٢٩ م ، كان وولى قد دخل فى أعماق تاريخ مدينة أور حتى عام ٣٠٠٠ ق . م . تقريباً . ولكنه كان يريد أن يعرف كم من الزمن عاش الناس فى أور قبل هذا التاريخ ، وفى سبيل هذا صمم على دق مجسات أو حفر أنفاق تحت سطح المقابر القديمة . وأن يستمر فى الحفر حتى يصل إلى التربة التى رسبتها الأنهار ، قبل أن يطأ الإنسان الأول أرض هذا الوادى .

وأخذ وولى يدرس بعناية الأشياء التى كشف عنها المعول ، بينما كان العمال يتعمقون فى الحفر بأناة فى جوف الماضى . وكان دائما يجد نفس النوع من الأدوات المعدنية والأوانى الفخارية المصنوعة بالعجلة . وإذا كانت الكتابة على اللوحات القديمة رديئة ، فإن سيرووليى لم يجد فى الكتابة الأحدث سوى تغيير طفيف ،

فقد سارت الحياة فى أور خلال القرون على وتيرة واحدة تقريباً .

وأخيراً صادف العمال طبقة من الطمى الخالص . وكانت هذه الطبقة خالية تماماً من بقايا صناعة الإنسان . وهكذا بدا أنهم وصلوا إلى التربة الأصلية للنهر .

لكن وولى عرف فى الحال أن طبقة الطمى هذه كانت أعلى بكثير من سطح النهر ، وأن عليه أن يدق مجسات أعمق من ذلك . واستمر الطمى يحمل ماء إلى عمق أكثر من ثمانى أقدام

وفجأة توقف العمال فى دهشة ، إذ وجدوا تحت طبقة الطمى طبقات جديدة من الحجارة الصغيرة ، ووجدوا شيئاً آخر . ذلك أن الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى هذه الطبقة الجديدة شكلت بالأيدى ولم تصنع بالطريقة السابقة ، طريقة العجلة . أما الأدوات الأخرى فمصنوعة من الحجر والصوّان ، لا من المعدن ، وحتى الآجر لم يكن يشبه ما رأوه من قبل .

الواقع أنهم وجدوا بقايا حضارة مختلفة تماماً عن

حضارة أور على عمق ست عشرة قدماً من مستوى سطح أور التي عاشت حول ٢٧٠٠ ق . م . لقد وجدوا مدينة ذات منازل من الآجر حسنة البناء ، عمرها ستة آلاف سنة .

وعرف وولى وقت ذاك أنه اكتشف أقدم حضارة على الأرض ، لقد ظن العلماء أن المصريين كانوا أقدم الشعوب المتحضرة ، ولكنهم وجدوا هنا مدينة أقدم بقرون كثيرة من بدء الحضارة فى حوض النيل . وهكذا كتبت معاول الأثريين الفصل الأول فى سجل التاريخ .

كان هناك شيء واحد يثير الشك عند وولى ، وهو : ما الذى سبب مثل هذا الفراغ أو الانقطاع فى تاريخ أور ؟ لماذا كانت البقايا أسفل طبقة الطمى مختلفة تماماً عنها فوقها ؟

لا يستطيع أى نهر على الأرض أن يرسّب كمية من الطمى تبلغ ثمانى أقدام : إلا إذا كان طوفان كبير قد حدث . ومن المؤكد أن الحضارة التى وجدت تحت طبقة الطمى قد غمرتها المياه تماماً ، وأن شعبا جديداً قد بنى المدينة التى تعلو الطمى .

وفى الحال طافت بعقل وولى قصة الطوفان الكبير الموجودة فى التوارة ، تلك القصة التى ظن البعض أنها أسطورة ، على حين آمن بها البعض الآخر ؛ وإن كانوا قد اعتقدوا أنها حدثت فى زمان سحيق ، لدرجة يتعذر إثباتها . واقتنع وولى بأنه وجد الدليل على هذا الطوفان الكبير نفسه :

وكان المعروف أن قصة التوراة عن الطوفان الكبير مأخوذ بعضها من أسطورة سومرية أقدم من التوراة ؛ تقول الأسطورة السومرية « كل البشر قد تحول إلى طين . وأصبحت الأرض منبسطة كسقف البيت ، ولكن رجلا واحداً — هو نوح فى التوراة — انتشلته الآلهة ليعيش » .

وقد عين وولى حدود منطقة الطوفان بوساطة دق المجسات إلى أعماق كبيرة فى الأرض ، وتبين أن المياه غمرت مساحة تبلغ أربعمائة ميل طولا ومائة ميل عرضاً ، وهى بالطبع لم تغمر العالم كله كما تقول الأسطورة .

ولكن بالنسبة للشعب القديم فى ذلك الوادى ، كان ما غمره الماء هو العالم بأسره .

ومما لا شك فيه أن طوفانا هذا مدى اتساعه ، لا بد أن يمحو حضارة الوادى محواً تاماً . ومن المعروف أنه لم توجد حول عام ٤٠٠٠ ق . م . أجهزة رادار ولا طائرات هيلوكوبتر لتحذير الناس وإنقاذهم من الخطر . فمثل هذا الطوفان كان فاجعة مخيفة حقاً .

نستطيع أن تتصور شعور علماء الآثار وهم يهبطون مع هذه المجسات . . إنهم فى لحظة ، يقفون على عتبة مدينة أور المذكورة فى التوراة . وفى لحظة ثانية ، يمدون أيديهم ليلمسوا الطمى الذى خلفه الطوفان ، وفى لحظات أخرى يجدون أنفسهم وسط مدينة أور التى عاشت قبل الطوفان الكبير . إن أعمق سطح بلغه المنقبون ، شاهد مولد جنس من الناس غير معروف ، وشاهد موته أيضاً ، وقد عاش هذا الجنس قبل زماننا بسبعة آلاف سنة .

من المؤكد أن معظمنا لن يرى مدينة أور . فالسياح

يزورون دائماً الآثار فى مصر ، وفى تشيشين اتزا ، وفى كريت ، لأن كل ما تبقى من مدينة أور هو هذه الكتابات المسمارية الغريبة ، وأدوات الزينة المصنوعة من الذهب ، التى ازدانت بها بقايا عظام الموتى ، وبقيت كذلك فقط مجموعة من التلال يغطيها الآجر وسط رمال الصحراء . أما برج الزيجورات فقد سلبه الزمن بعض روعته وسلبه الناس ما بقى منه ، وعادت الشوارع والمنازل إلى سباتها الذى أيقظتها منه معاول الأثريين .

لكن ، لقد بقى للسومريين دليل على مجد خالد فيما عثر عليه فى مدينة أور ، فهذا ولا شك يعطى صورة واضحة لهؤلاء القدامى الذين يدين لهم عالمنا الحديث بالكثير .

ونحن اليوم إذا كنا نقسم الساعة إلى ستين دقيقة ، والدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، فإننا نستخدم النظام السومرى فى الحساب . ومعلوماتنا عن العقد والقبو والعمود ، إنما

ندين بها لهؤلاء البنائين القدماء . واختراع الكتابة والعجلة ، ما هما إلا منحة أتت لنا من هذا الشعب المفقود .

وهكذا ، نرى أن حضارتنا فى حقيقتها أثر واستمرار لحضارة شعوب قديمة .

الفصل السادس

لغــز القلعــة

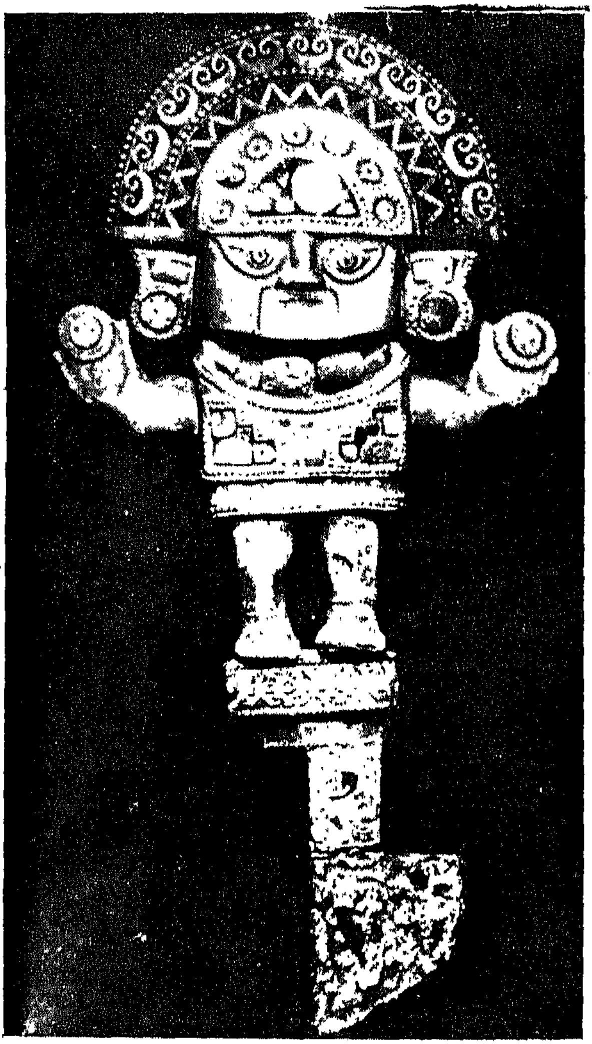
توجد فى بلاد بيرو وفوق جبال الأنديز الشاهقة الارتفاع ، مدينة حصينة يحيطها الغموض . وقد ظلت مبانيها الحجرية المهجورة متعلقة بالهضبة الشديدة الانحدار مدة تزيد على ألف سنة ، قبل أن يفد عليها پيزارو الإسبانى . ولم يكن أى غريب يتوقع لها وجوداً منذ قرون عدة . ولم يبحث أحد عن هذه المدينة المفقودة سواء پيزارو أو غيره ممن أتى بعده . ولم يعرف أحد مبانيها خلال القرون المتعددة سوى الطبيعة ، التى رأت أن تغطيها بستار كثيف من النباتات المدارية ، وتعاونت الجبال والغابات مع الطبيعة ، فأخفت معالم المدينة ، بل لقد محى اسمها من سجلات الإنسان ؛ وكل الذى بقى لنا ، بعض أساطير هندية قديمة كانت تهمس بقصة القلعة المنسية منذ زمن طويل .

وقد ترددت هذه الأساطير على ألسنة أناس اسمهم

الإنكا ، الذين بنوا إمبراطورية قوية واسعة جذبت إليها أطماع الإسبان . وقد قيل إن شعب الانكا يملك قدراً كبيراً من الذهب لا يمكن تصوره ، حتى إن صحاف موائدهم وكؤوسهم صنعت من هذا المعدن النفيس ، الذى عرف عند الهنود باسم « دموع الشمس الباكية » .

وكانت الرغبة فى الحصول على الذهب هى التى جذبت فرانشسكو پيزارو إلى إقليم بيرو عام ١٥٢٥ . وسارت جيوش هذا الإسبانى الفاتح ، فى طرقات توجد تماماً تحت المدينة المختفية فى الأنديز . وصانت قمم الجبال السر الذى تخفيه جيداً عن أعين الفاتحين . ومضت القرون قبل أن يشك أحد من الأجانب فى وجود هذه القلعة القديمة المعلقة بين الجبال كعش الطير . وحتى ذلك الوقت كانت المدينة الحجرية المهجورة ، ترقد حالمة وهى بعيدة عن صخب المعارك الوحشية ، وحشرجة أنفاس الموتى .

لم يكن پيزارو يعرف على الإطلاق شيئاً عن عظمة الإمبراطورية التى حطمها . لقد كانت حدودها تمتد إلى مساحة واسعة ، كما ارتبطت أجزاؤها بمجموعة فذة من



(شكل ١٩) تمثال ذهبى لأحد آلهة الأنكا

الطرق الممهدة . وكان عرض أحد هذه الطرق عشرين قدماً ، وطوله ألفى ميل تقريباً — أى قرب المسافة بين منبع النيل ومصبّه . وكان على بناة هذه الطرق فى بعض الأجزاء أن يحفروا أنفاقاً فى الجبـــال تخترق الصخر . وغالباً ما كانوا يصنعون من أفرع الكروم معابر للأنهار الواسعة ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه طرق ببلاد متحضرة وقتذاك تعرف باسم أوربا ، مبنية من الطين والحجر غير المثبت . ومع ذلك فإن هؤلاء الأنكا « المتوحشين » مهدوا طرقاتهم البديعة باستخدام أدوات مصنوعة من الحجر فقط .

أما إمبراطور الانكا فقد عاش فى قصر فخم بمدينة كوزكو ، عاصمة الإمبراطورية . وقد عبده شعبه باعتباره الابن المقـــدس لإلههم الأسمى وهو « الشمس » . وكان هذا الابن إذا مات توضع مومياه على مقعد ذهبى فى معبد الشمس مع موميات باقى الأباطرة السابقين . وفى أيام الأعياد كانوا يخرجون موميات أباطرتهم ذات التيجان الذهبية لعبادتها .

وكانت كلمة إمبراطور الانكا بمثابة قانون ، وله أن يتحكم فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة كل فرد فى إمبراطوريته الواسعة . فكان يخبرهم متى يتزوجون ، وأى الآلهة يعبدون ، وفى أى مكان يقيمون ، وبأى الأعمال يشتغلون . وكان يختار عدداً من رعاياه لحبك الغزل ونسج القماش . ويختار أسرعهم فى الجرى لنقل الأخبار . ويحدد من يقومون بأعمال البناء أو التعدين أو الصناعة أو الزراعة ، ولا راد لقضاء الإمبراطور فيما يقضى .

وكان لا يسمح لأى شخص بامتلاك الأرض ، لأنها كلها ملك للآلهة ، وكان الربع الأول من أى حصاد مخصصا لكهنة الشمس . والربع الثانى يقسم بين المسنين والمرضى والأرامل واليتامى . والربع الثالث يبقى لسد حاجة الزراع ، أما الربع الأخير فيذهب للإمبراطور وموظفيه .

ولم يكن عند الانكا ماشية أو خيول ، كما هى الحال فى المزارع الحديثة . فكانت حيواناتهم التى تحمل الأثقال

من نوع غريب مثـــل اللاما . وكانوا يدربون مئات الآلاف منها على العمل . كما كان وبرها الصوفى يزودهم بالغزل المستخدم فى صناعة الملابس . ولم يكن أولاد الشمس هؤلاء يستطيعون الحياة بدون هذا الحيوان الذى يقرب من الجمل .

ويختار الإمبراطور من الناس أصلحهم ليكونوا مهندسين ، وليبنوا الترع التى تحمل الماء إلى الحقول والمدن . وقد بنى هؤلاء أيضاً الطرق المرصوفة الممهـــدة التى ربطت كوزكو « بأركان العالم الأربعة » — كما كانت تسمى بلادهم .

وكان الإمبراطور أو « الانكا الاوحد » كما كانوا يسمونه ، يستخدم هذه الطرق عندما كان يخرج إلى أركان العالم الأربعة ، فى جولاته التفتيشية . وما من شك أنه كان منظراً عجيباً ، إذ كان خـــدم الإمبراطور يكنسون الطرقات أمامه من التراب والحصى بصفة مستمرة ، فى حين يحمل النبلاء المحفة الملكية المصنوعة من الذهب والفضة ، والمزينة بالجواهر الثمينة . وعلى هـــذه المحفة



(شكل ٢٠) بيرو ... مركز حضارة الانكا

يجلس أو يضطجع الحاكم العظيم فى ارتياح . ويميزه عن الجميع حلقتان ذهبيتان كبيرتان فى شحمتى أذنيه . وحينما يمر الحاكم ذو الحلقتين الكبيرتين يتجمع رعاياه المخلصون على طول الطريق ويركعون له .

ونحن وإن كنا اليوم بغير حاجة إلى أن نعيش فى ظل سلطان مثل سلطان هذا الملك ، إلا أننا لا نزال نعجب بالطريقة التى نظم بها إمبراطورية « الشمس » التى كان يحكمها . ومن المؤكد أن الحكام المحدثون لا يحسدون هذا الإمبراطور على انشغاله بتحديد العمل للملايين من الناس . وفى استطاعتنا أن نتصور المشاكل التى تنتج من اتساع حجم إمبراطوريته ، إذا علمنا أن جزءاً منها كان عبارة عن صحراء جرداء ، وجزءاً آخر عبارة عن مستنقعات فى منطقة الوديان المدارية ؛ هذا إلى جانب جزء جبلى ثالث شاهق الارتفاع تكسو قممه الثلوج . وكان من الأمور الصعبة ولا شك أن يقرر أين تبنى الطرق ، وأين ترعى قطعان اللاما ، وأين تزرع الحبوب وسط كل هذه الاختلافات المناخية الكبيرة .

وقد احتاج الإمبراطور إلى قوائم مكتوبة لتذكره بكل هذه الأشياء التى يقوم على رعايتها . ولكن لما لم يكن الانكا يعرفون الكتابة فقد استبدلوا بها استخدام مجموعة من الخيوط المتعددة الألوان والمتعددة العقد . وكانوا يسمون هذه الخيوط « كيبو » . ونحن نعجب اليوم : كيف أن ثمانية وسبعين خيطاً ذات عقد وألوان مختلفة ، يمكن أن تكون ذات نفع كبير . فقد استخدمت الكيبو فى الحساب واستخدمت كتقويم ، بل إنها استخدمت لتسجيل أحداث التاريخ الطويل لإمبراطورية الانكا .

ويعتقد العلماء أن مجموعة الألوان المتعددة ، والخيوط المختلفة الأطوال ، وكذا مواضع العقد ، كلها أشياء لها معان محددة . وعلى أية حال فنحن لم نستطع اليوم قراءة الكيبو ، مثلما كان يفعل الانكا القدماء .

والتاريخ القديم لإمبراطورية الشمس هذه ، غريب جداً وساحر . فقد كان هناك هنود يعيشون فى بيرو قبل أن تظهر هذه الإمبراطورية فى الوجود . ولا يعلم

أحد اليوم اسم أجداد الانكا ، ولكن أحد العلماء سماهم شعب الأحجار الكبيرة ، مشتقا ذلك من أسلوب عمائرهم ، فقد كانوا يصنعون الجدران من كتل حجرية ضخمة قد تزيد أحيانا على أربعة عشر طنا . وعرف هؤلاء البناؤون القدماء كيف يوفقون بين بعض الكتل الحجرية وبعضها ، ورفعوا الأحجار الضخمة التى يبلغ وزنها وزن ثلاثة أفيال أو أربعة ، دون استخدام آلات الرفع التى نعرفها حديثاً . واستطاعوا بدون اسـتخدام الأدوات المعدنية أن يقطعوا الكتل الحجرية على الشكل والحجم المطلوبين . وألصقوا الأحجار بعضها ببعض بدقة تامة ، لدرجة يصعب معها علينا أن ندخل بينها دبوساً . وعجزت الزلازل الشديدة المألوفة فى هذا الإقليم عن أن تزحزح الأحجار الضخمة عن مكانها .

وتقول أسطورة هندية قديمة إن مؤسس إمبراطورية الأنكا ، انحدر من سلالة « شعب الأحجار الكبيرة » . ويقال إنه بعد مولد المسيح بعدة قرون هاجمت قبائل متوحشة آتية من الجنوب شعب الأحجار الكبيرة وأرغمته

على الهرب إلى ركن بعيد فى جبال الأنديز ، حيث بنى له حصنا فوق قمم الجبال ، سمى « تمبوتوكّو » أو « المكان ذو النوافذ الكثيرة » . وهناك عاش الانكا مئات السنين فى أمان .

وبعد مدة تكررت القصة القديمة ، فإن شعب تمبوتوكّو أخذ يقوى شيئاً فشيئاً ، وقرر أبناء الملك الثلاثة أن الوقت قد حان ليتركوا ملجأهم ويخرجوا إلى العالم ليفتحوا بلاداً جديدة . وألقى الأمراء الثلاثة تحية الوداع على قومهم ، وخرجوا من تمبوتوكو من خلال ثلاث نوافذ كبيرة بالبناء المقدس ، واتجهوا إلى التل الذى تشرق عليه الشمس .

غزا الأمراء الثلاثة قبائل كثيرة وامتدت أملاكهم جنوبا حتى شيلى ، وشمالا حتى اكوادور ، وعرفت هذه البلاد باسم إمبراطورية الأنكا ، وكان أول حكامها منكو كاپاك ، أكبر الأمراء الثلاثة .

لكن تمبوتوكّو استمرت « مدينة مقدسة » باعتبارها

مسقط رأس الانكا الأوحد . واحتفظ بمكان هذه المدينة سراً لايعرفه الأجانب . وظلت كذلك حتى ضاعت مع ظلال الزمن كل المعلومات الخاصة بموضع هذه المدينة .

وشك العلماء المحدثون فى وجود مثل هذا المكان ، وظنوا أن قصة القصر ذى النوافذ العديدة ، ليست سوى خرافة ابتكرت لتوضيح نشأة الانكا الأوحد أو الإمبراطور . ولما لم يبتكر « شعب الأحجار الكبيرة » طريقة ما للكتابة ، فقد بدا أن حقيقة وجود تمبوتوكو سوف تظل مجهولة .

ولكن بعد مرور أربعمائة سنة تقريباً من غزو پيزارو لأبناء الشمس ، خرج مستكشف أجنبى آخر إلى بلاد الانكا ؛ وكان المستكشف فى هذه المرة أستاذاً أمريكيا من جامعة ييل . لم يكن هذا الأمريكى يبحث عن الذهب ، ولكن عن المعرفة ، أو عن المعلومات الخاصة بإمبراطورية الشمس التى اندثرت منذ زمن طويل .



(شكل ٢١) أواني « الأنكا » الفخارية

اسم هذا الأمريكى هرام بنجهام ، وكان أمله أن يصل إلى المعلومات المنشودة عن طريق دراسة خرائب الانكا . وقد عرف بنجهام ، بطبيعة الحال ، أنه لا توجد آثار مكتوبة أو لوحات طينية تساعده على ما يريد ، وأن هذا التاريخ المعقد القديم يجب أن تستخلص مادته من دراسة بقايا المبانى والأقمشة والفخار والعظم .

وبدأ بنجهام رحلته مع رفيق واحد . والطريق الذى سلكاه كان قد مهدته الحكومة حديثا فوق معالم طريق هندى قديم . وقبل تمهيد هذا الطريق لم يكن فى استطاعة المستكشفين الوصول إلى ذلك الجزء من بيرو .

وهـــذا الطريق يمر بوادى نهر أوروبامبا ، وقد عجب بنجهام ، إذ رأى نفسه يسير فى هذه المناطق الحارة . وكان إذا رفع بصره رأى من فوقه قمم الأنديز المتجمدة كالأبراج ؛ وهنا وهناك كانت تبدو بعض أحجار من بناء قديم يدل على أنه من صنع شعب انقضى منذ زمان طويل .

بحث الرجلان أياماً طويلة دون أن ينجحا فى الوصول

إلى شيء ما . وتوقفا مرات ومرات عند المزارع والقرى ليسألا عما إذا كان أحد يعرف مكان خرائب الانكا . وأخيراً قابل بنجهام فلاحاً هنديا قال إنه يعرف مكان بعض الأحجار القديمة ؛ وأشار إلى قمة جبل فى الأفق البعيد . كان هذا الجبل الذى يدعى جبل ما تشوبيكو، يرتفع عشرة آلاف قدم . وقال الهندى إنه رأى خرائب كالتى يبحثون عنها على حافة الجبل وتحت قمته المدببة تماما . وعرض عليهما أن يقودهما إلى المكان مقابل مبلغ كبير من المال . وكان الأجر الذى طلبه خمسين سنتا وهو يعادل أجره اليومى العادى مرتين ونصف مرة .

وقد تتبع بنجهام بأمل مرات ومرات مثل هذه القصة ، ولكنه كان يجد فى النهاية أن الخرائب المحكى عنها ، لم تقم إلا فى خيالات قائليها فحسب . ومع ذلك فقد بدأ رحلته إلى قمة ماتشوبيكو وكله أمل . وقادهما الفلاح الهندى خلال أدغال متشابكة إلى نهر أوروبامبا ؛ وكانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الضفة المقابلة هى التعلق بجسر مضطرب مصنوع من أربعة من جذوع

الشجر ، مربوط بعضها إلى بعض ، بوساطة أغصان الكروم . وهكذا بدأت رحلتهم تصبح أكثر مشقة .

كانت الحافة التى يقودهم إليها دليلهم ، ترتفع ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر ، أو ما يزيد عن ارتفاع الهرم الأكبر ست عشرة مرة . أخذ الجميع يصعدون الجبل عاليا ، وكانوا يستعينون على الصعود فى الأجزاء الشديدة الانحدار بالتشبث بأفرع الكروم المربوطة إلى الصخر فى سفح الجبل . وفى بعض الأحيان كانوا يظلون معلقين من أصابعهم وهم يبحثون بجنون عن موضع لأقدامهم . وكانت زلّة قدم واحدة تعنى سقوطهم من تلك الارتفاعات المزعجة إلى شلالات نهر أوروبامبا أسفلهم .

وفى وقت متأخر من بعد الظهر ، توقف الجمع المتعب اليائس ، فى ظل غابة مدارية ، دون أن يظهر أى أثر للخرائب التى قال عنها الدليل . والواقع أن بحثهم كان عديم الجدوى ؛ إنهم كانوا كالباحث عن إبرة وسط كومة من القش .

وبينما هم جالسون للاستراحة ، أخذ بنجهام يتطلع حواليه فى وجوم ، وفجأة لمح بريق شىء أبيض بين الحشائش الخضراء . وفى الحال زال تعبه ، وقفز ليرى ما عسى أن يكون هذا الشىء .

دفع بنجهام جانباً ، فروع الكروم وجذورها بلهفة عظيمة ؛ ولمح فى أسـفلها حائطاً مبنياً من الحجر . كانت كتله الجرانيتية الضخمة مقطوعة قطعاً جميلا وملصقاً بعضها فوق بعض بدون ملاط . وزادت دهشة بنجهام حين رأى أن الجدران تغطى مساحات هائلة . ولا يكبرها فى الضخامة فى بلاد بيرو سوى خرائب كوزكو .

والآن ، وبعد انقضاء زمن طويل ، آذنت قمم جبال الأنديز أن تبوح بسرها . وآن للعالم أن يعرف شيئاً عن القلعة الغامضة ، التى تراكم عليها تراب السنين ، والتى بقيت مبانيها الشامخة مختفية زمناً طويلا عن أعين الفاتحين الإسبان والرحالة المحدثين ، والتى لم يخط فى طرقاتها القـديمة أحد منذ أن غاب عنها بناتها المجهولون منذ زمان بعيد .

ولم يذكر الكتاب الإسـبان القـدماء ولا العلماء

المحدثون ، شيئاً عن إمكان وجود مثل هـذا الحصن القابع فوق قمة الجبل . وكل ما كان هنالك من أخبار عن هذا الحصن هو مجرد أساطير قديمة .

وقرر هرام بنجهام أن يدعو هذه المدينـة القائمة وسط السحب ، ماتشوبيكو ، وهى المدينة التى أتاحت أعظم فرصة للكشف عن مدنية الانكا التى لم يعرفها غزاة بيرو من الإسبان .

وقد تكفلت بالاستكشاف هناك ، كل من المجلة الجغرافية الوطنية وجامعة ييـل سنة ١٩١٢ . وكانت الصعوبات التى واجهتهما كثيرة جداً ؛ فكان لا بد من نقل الأغذية والمؤونة عبر مناطق مدارية واسعة . شغلت نباتاتها كل جزء من سفح الجبل . ولم يكن الزحف وسط سيقان الغاب الهندى ، إلى جانب تسلق الصخور ، سوى طليعة العقبات .

وكان على الصاعدين فوق الجبل أن يكيّفوا أجسامهم لمناخ تنخفض حرارته ليلا بمقدار ٥٥ درجة عنها نهاراً . وقد أفزعتهم الثعابين السامة ، والبراغيث والنمل المؤذى ، والوطاويط المصاصة ، والانهيارات الأرضية .

وكانت هذه الصعوبات كافية لتثبيط همم من هم أقل تصميما ورغبة من أفراد المجموعة . أضف إلى هذا صعوبة التعامل مع العمال الوطنيين ، الأمر الذى زاد أعباء المكتشفين ثقلا .

وكان العمال الوطنيون بلداء لسبب واحد . فقــد عرف بنجهام أن الهنود عندهم عادة مضغ أوراق الكوكا . وكما كان العمال الأمريكيون يأخــذون فترة راحة لشرب القهوة ، كذلك كان هنود بيرو يأخذون فترة راحة لمضغ الكوكا . ولكن القهوة لم تكن مؤذية مثل الكوكا ، فهذه الأخيرة عبارة عن النبات الذى يؤخذ منه الكوكايين . وعادة مضغ أوراق الكوكا تقضى على الطموح ، وتبدد العزم وتميت الشهية . ورغم ما تحدثه فى الجسم والعقل ، فإن الهنود لا يستطيعون العمل مطلقا دون أن يتناولوها أربع مرات فى اليوم .

أخذت جماعة المستكشفين تعمــل فى الكشف عن المدينة مع هؤلاء العمال ، الذين لا يمكن الاعتماد عليهم : واستلزم الأمر أن تمحى غابة بأكملها تماماً ؛ وفى بعض

الأماكن كانت توجد أشجار ضخمة يبلغ سمك جذعها قدمين تنبت جذورها فوق منازل المدينة . وإخراج هذه الجذور المتشابكة يحتاج ولاشك إلى عناية كبيرة ، حتى لايحدث أى ضرر بالمبانى . والنباتات المدارية سريعة النمو عادة ، حتى إن العمال اضطروا إلى قطع الأعشاب فى ماتشوبيكو ، ثلاث مرات فى خلال أربعة أشهر .

ولكن نتائج جهودهم كوفئت بكرم عظيم . فقد كشفت ماتشوبيكو عن قلعة كبيرة ، أو مدينة حصينة ، من المؤكد أنها بنيت لحماية شعبها من أى هجوم .

كان خط الدفاع الأول عن المدينة هو موقعها نفسه . فقد كانت ماتشوبيكو مختفية وسط هضبات شديدة الانحدار ، ووديان تحميها الشلالات الخطرة ، التى تعترض مجرى نهر أوروبامبا . وبالإضافة إلى قوى الدفاع الطبيعية هذه ، بنى حولها حائطان كبيران ، بينهما خندق عميق .

فمن هم بناة ماتشوبيكو ؟ ومن هم الأعداء الذين كانوا يخشونهم ؟ . . . كان مفتاح سر هذه المدينة الحصينة يكمن فى معبدها ، وهو معبد غريب حقاً .

بنى المعبد من ثلاثة جوانب فقط . واتخذت هذه الجوانب من كتل ضخمة من الجرانيت الأبيض ، ومقطوعة وملصقة بإتقان تام . أما الجانب الرابع من مبنى المعبد فقد حمل سقفه على عمود ضخم هائل ، منحوت من كتلة واحدة من الحجر .

وكان السر يكمن فى أحد جوانب هذا المعبد ؛ إذ كان هذا الحائط عبارة عن إطار لثلاث نوافذ ضخمة ، لم يعثر على بناءٍ مثلها فى أى مكان آخر . ومن المؤكد أننا لم نسمع عن وجود نوافذ كبيرة مماثلة فى المبانى التى أقامها شعب الأحجار الكبيرة .

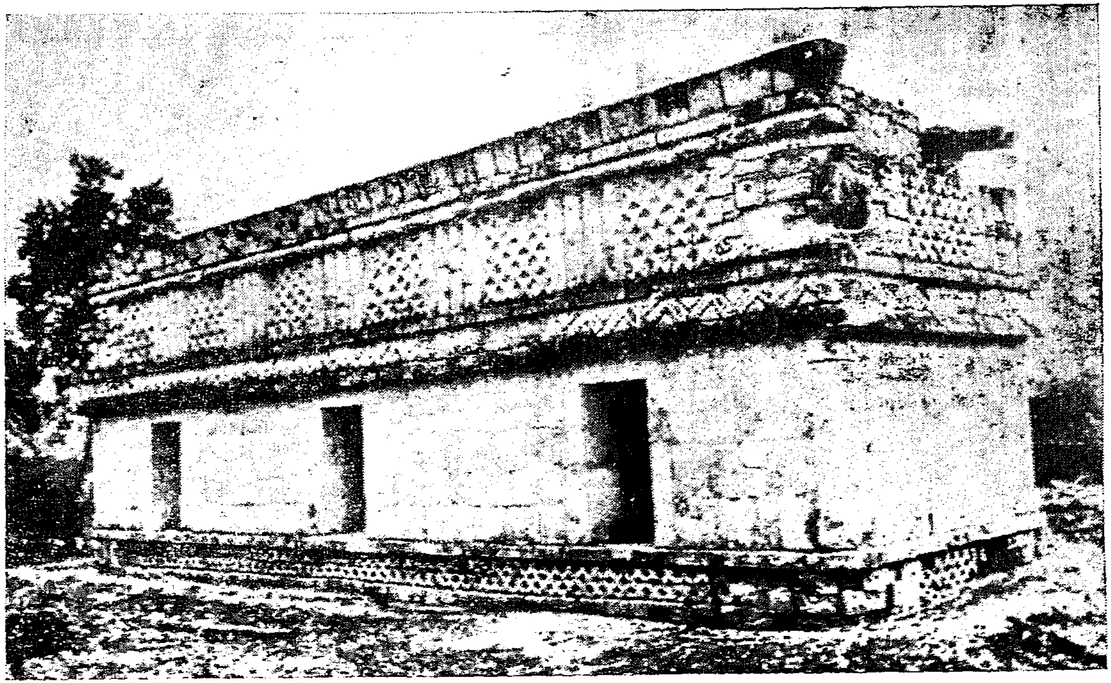
وبالنسبة لبنجهام كان المعبد ذو النوافذ الثلاث يعنى شيئاً واحداً ، وهو أنه عثر على تمبوتكّو : أى المكان ذو النوافذ العديدة الذى خرج منه مانكوكاباك وإخوته ، ليبدءوا تكوين إمبراطوريتهم العظيمة .

ومما قوى اعتقاد بنجهام فى هذا ، أن المدينة كانت مختفية ومحصنة تحصيناً عظيما . ألم تقل الأساطير القديمة

أن تمبوتكو كانت مبنية لتكون ملجأ ضد قبائل البرابرة المحاربين ؟ الحقيقة أن شعب الأحجار الكبيرة ، فى ماتشوبيكو ، اختار مكانا لا يمكن أن يهتدى إليه أعداؤه بدون دليل .

وقد وُجد فى ماتشوبيكو معبد آخر أكبر من الأول ، وربما استخدم مذبحه الضخم الهائل فى حفظ موميات الموتى المقدسين ، الذين كانوا يخرجون جثثهم لعبادتها فى بعض أعيادهم الخاصة . وكانت هذه الموميات التى تفتتت منذ عهد طويل محفوظة يوما ما داخل بناء جميل تزين جدرانه النقوش المحفورة . وقد بنيت هذه الجدران من الصخر الذى تقوم عليه . أما مغارة الدفن الكائنة بأسفل الجدران ، فتوجد بها مصطبة لتستريح فوقها الموميات .

ولم تكن أجسام الانكا تحفظ مستلقية على الأرض مثلما كانت موميات قدماء المصريين ، بل كانت تدفن وهى جالسة القرفصاء وقد التصقت الركبة بالذقن . وكانت الأجسام تلف بأربطة عديدة من القماش وتحزم



(شكل ٢٢) المعبد ذو النوافذ الثلاث

بقدر كبير من الحبال ، ثم يحاط ذلك كله بلفة من الشباك . وفى أيام الأعياد كانت تزين هذه الموميات بأربطة جديدة وتوضع فى المعابد ، وكأنها شهود وقفوا لينظروا مراسم العبادة فى صمت .

وكان منزل الكاهن الأكبر متصلا بالمعبد الكبير . والبناءان مفتوحان على ميدان مقدس ، يقف فيه الكاهن كل صباح ، ليحيي الشمس المشرقة .

وفى الخريف حينما تبدأ الشمس رحلتها صوب الشمال ، يقيم الكاهن حفلا دينياً كبيراً ، قرب صخرة كبيرة مرتفعة فى الجبل . وقد عرفت هذه الصخرة المقدسة باسم « الحجر الذى تُربط إليه الشمس » وكان الناس يخشون أن تذهب الشمس بعيداً بحيث لا يمكنها العودة ثانية ، فتموت محاصيلهم وتعم المجاعة . لذلك كان على الكاهن أن يربط الشمس إلى هذا الحجر ليتأكد من عودتها فى الربيع . وحينما تبدأ الشمس رحلتها جنوباً يعتقد الناس أن تعويذة الكاهن قد صحت .

ولم يكن فى ماتشوبيكو شوارع ، لأن المدينة بنيت

فوق منحدرات الجبل ، وكانت السلالم المقطوعة في الصخر هي الشوارع . وقد زاد عدد هذه السلالمات على المائة بين كبير وصغير . واحتوى بعض هـذه السلالمات على ثلاث درجات أو أربع فقط ، أما الشارع الرئيسي ، فقد اشتمل على مائة وخمسين درجة . وفي بعض الأحيان كان السلم يقطع كله من صخرة واحدة هائلة .

وكان الفضاء محدوداً جداً في ماتشوبيكو ، حتى لقد تلاصقت البيوت ذات السقوف الجمالونية ، بعضها إلى جانب بعض . أما بناؤها فكان من الحجر طبعا ، وأما الملاط فلا أثر له إلا في الجانب الداخلي من الجدران . ولم يوجد أي دليل على استخدام الناس للأنضاد أو المقاعد على الإطلاق . ومع ذلك فقد وجدت في بعض المنازل صخور ضخمة ، موضوعة على الأرض ومفرغة من وسطها ، وهذه كانت تستخدم لطحن الحبوب . حقا ما أسعد حظ زوجات القرون الخوالي اللائي كن يملكن بعض الأجهزة في بيوتهن

والحقول كانت هى الأخرى مزدحمة ومتلاصقة فى ما تشوبيكو . فهناك وفى سائر الجهات الجبلية الأخرى فى بيرو ؛ نجد التربة صخرية وفقيرة ، وعلى ذلك فقد نقل الفلاحون الهنود القدامى أطنانا وأطنانا من غرين الوادى الغنى ، إلى المنحدرات الجبلية العالية ، وكونوا بهـذا مدرجات صناعية ترتفع فوق التلال الواحد بعد الآخر ، كأنها درجات السلم ، ثم أحيط هذا الغرين بحوائط حجرية ساندة . وكانت بعض هذه المدرجات مائلة جداً ، حتى لقد احتاج الأمر إلى ربط نبات القرع العسلى إلى أفرع الكروم ، لتحفظها من التدحرج إلى أسفل الجبل .

وفى الوقت الذى اكتسح فيه البرابرة بلاد أوربا ؛ كان هؤلاء البناءون والفلاحون المهرة ، يعرفون كيف يتحكمون فى مجارى الثلوج الذائبة من فوق قمم الجبال ، لاستخدامها فى رى محصولاتهم . وكانوا يزرعون سبعين أو ثمانين نوعا مختلفا من النباتات . وفى مقدمة أغذيتهم الرئيسية صنف من الخضار نسميه خطأ :

البطاطس الايرلندية . ولم يعرف الأوربيون البطاطس مطلقاً ، قبل أن يحضره الإسبان من بيرو فى القرن السادس عشر . ولم يدر بخلد هؤلاء الإسبان أن الذهب والجواهر التى أخذوها من الانكا لم تكن شيئاً يذكر بالنسبة لبنى الأنسان ، إلى جانب البطاطس ، ذلك النبات البسيط .

إن الناس فى الولايات المتحدة يفخرون اليوم بالأعمال الهندسية التى يقيمونها فى صحراواتهم الغربية . ومع ذلك فقد عرف « شعب الأحجار الكبيرة » ، قبل أن يكشف كولمبس أمريكا بسنوات طويلة ، كيف يحول سفوح الجبال التى لا نفع فيها إلى حدائق سهلة الرى غنية بالنباتات . ولا تزال تستخدم فى أمريكا الجنوبية حتى اليوم ، آلاف الأفدنة من نوع هذه الحقول التى خلقتها يد الإنسان . ولا يصدق الهنود المحدثون أن أجدادهم هم الذين بنوا هذه المدرجات البديعة ، وهم يعتقدون أنها وجدت بفعل بعض القوى السحرية .

لقد كانت الحدائق المعلقة فى بابل إحدى عجائب الدنيا القديمة ، ثم ذبلت وماتت منذ ثلاثة آلاف سنة .

لكن حدائق بيرو المعلقة لا تزال تؤتى ثمارها من أجل السلالة الباقية إلى اليوم من نسل بناتها .

ولما انتهى بنجهام ومن معه من الكشف عن المبانى والسلالم والمدرجات فى ماتشوبيكو ، اتضح لهم أن المدينة سكنها أقوام ذوو حضارات متعددة . فقد وجدت المبانى من فترتين ، لكل منها أسلوب معمارى مختلف .

وتنسب مبانى أقدم الفترتين لشعب الأحجار الكبيرة . فقد استخدم هذا الشعب كتلا ضخمة من الجرانيت الجيد القطع ، حتى إنه لم يحتج إلى ملاط لتثبيته فى مكانه ، ولا بد أن هذه المبانى الجميلة قد اكتملت خلال عدة أجيال .

أما مبانى الفترةالثانية ، فقد جاءت متأخرة قرونا عدة عن مبانى الفترة الأولى . ولم تكن مبانى الفترة الثانية جيدة كالأولى . فالأحجار خشنة أو أصغر حجما . وهى مربعة فى قطعها ، ومثبتة بعضها إلى بعض بالملاط ، ويحتمل أن هذه الأحجار غطيت بطبقة رقيقة من الملاط . وقد تمت هذه الأعمال على نحو سريع ، حتى ليبدو أنه كان

ثمة حاجة إلى عـــدد كبير من المبانى فى وقت قصير . كذلك كانت بقايا الخزف والنسيج فى هذه الفترة المتأخرة أقل جودة من حيث صناعتها .

ترى إذن من يكون بناة ماتشوبيكو المتأخرون ؟.. ولماذا بنوا بهذه السرعة ؟ . . . ولماذا بقى مكان هذه المدينة الجرانيتية سراً طوال هذه القرون العديدة ؟

لقد وجد بنجهام فى الهياكل العظمية الصامتة فى ماتشوبيكو مفتاح اللغز الثانى لهذه القلعة .

إن عظام موتى شعب الأحجار الكبيرة ، وهم البناة الأصليون ، قد بليت منذ زمن طويل ، بسبب المناخ المدارى الرطب . ولم يبق سوى موميات السكان المتأخرين فى ماتشوبيكو ، بعـــد أن تحلل لحم الجثث وأربطة الموميات .

ولاحظ العلماء بعد دراسة هذه الموميات حقائق غريبة جداً ، من ذلك أنهم وجدوا اثنين وعشرين هيكلا عظمياً فقط للرجال ، من بين الهياكل السبعة

والأربعين والمائة التى كشفت . وتدل هياكل هؤلاء الرجال على أنهم متقدمون فى السن . ولم يظهر بهيا كلهم العظمية أى أثر لجراحات حربية ، أو لعمليات جراحية فى جماجمهم ، وهى العمليـات التى تمرس عليها الآنكا كثيراً . وبناء على هذا فلم يكن هؤلاء الرجال من المحاربين .

أى نوع من الأماكن إذن كانت مدينة النساء والرجال المسنين هذه ؟

لقد فكر بنجهام فى جواب طريف لهذا السؤال ، وهو أنه لما غزا الإسبان بيرو حاولوا القضاء على الدين القديم بقتل الكهنة والكاهنات . وكانت الكاهنات يخترن من أنبل الأسر فى الإمبراطورية ، ويدربن منذ الطفولة الأولى على خدمة المعبد . ولم يكن عند الانكا أعز من عذارى الشمس هؤلاء . وقد قتل الإسبان بعضاً منهن وأسروا بعضاً آخر . ولكن معظمهن هرب إلى إحدى قلاع أجدادهن ، على نحو ما تقول بعض الأساطير القديمة ، وهناك أحيين عبادة الشمس . وظل سر

المدينة المقدسة محفوظا فى صدر شعب الانكا ، حتى لا يغدر أحد بعذارى الشمس .

ولم تؤخذ هذه القصة مأخذ الجد ، مثلها فى ذلك مثل سائر الأساطير القديمة ، حتى جاء رجال الآثار فأماطوا بمعاولهم اللثام عن حقيقتها . وها نحن أولاء نرى الآن فى مخلفات مدينة ماتشوبيكو من المبـانى والعظام ، البرهان على صدق الأسطورة القديمة . فالمدينة مبنية فوق بقايا قلعة لا تزال موجودة ، على نحو ما تذكر الأسطورة ، كما يبدو من عظام موتاها أنها فقط لنساء ورجال مسنين . وهؤلاء بالتأكيد هم كهنة وكاهنات الشمس .

وخلال القرون مرت جيوش الإسبان الفاتحين وجماعات فلاحى بيرو المحدثون قريبا من هذه المدينة المخبوءة بأميال قليلة ، ومع ذلك فلم يخطر ببال أحد أن ثمة مدينة فى ذلك المكان الذى تعاون على كتم سره كل من الطبيعة والإنسان . ولما مات كل الذين يعرفون قصة

هذا المكان ، حافظت قمم الجبال على كتمان سر الأطلال التى بينها .

وأخيرا ... أعاد رجال الآثار كشف المدينة الغامضة القابعة وسط السحاب . ونظر بنجهام إلى المدينة فتصورها مسرحا مثلت عليه قصـــة قديمة ، وكان الفصل الأول من هذه المسرحية ، هو مجىء شعب الأحجار الكبيرة ، بعد مولد المسيح ببضعة قرون ، ليبنوا ملجأ خفيا يحتمون فيه من بأس أعدائهم . أما الفصل الثانى فهو رحيل ما نكوكاباك من المعبد ذى النوافذ الثلاث عام ١١٠٠ م . ليبدأ تكوين إمبراطورية الشمس الواسعة . وأما الفصل الأخير ، فهو مجىء عذارى الشمس حول منتصف القرن السادس عشر ، ليختبئن فى ذلك المكان الأمين . وبموتهن أسدل الستار نهائياً ، ولم يرفع ثانية قبل مرور ثلاثمائة وخمسين عاماً .

الفصل السابع

المدينـــة الذهبية

فى صبيحة يوم عيد الميلاد من عام ١٨٢٩ ، وفى قرية من قرى ألمانيا ، كان طفل فى السابعة من عمره يجلس فى كرسيه ومعه هديته المفضلة . إنها كتاب فى التاريخ تزينه صور جميلة لأشياء حدثت منذ سنين طويلة فى أماكن بعيدة عنه . وكانت أكثر هذه الصور استثارة للطفل رسماً يبين سقوط قلعة طروادة القديمة .

وفكر الصبى أنه حينما يكبر لابد أن يذهب ليرى بنفسه المكان الذى كانت توجد به بوابة طروادة الضخمة وجدرانها العالية . ولابد له أيضاً من أن يخطر فوق الأرض التى خضّبتها يوماً ما دماء اليونانيين وأهل طروادة الذين تحاربوا مدة عشر سنوات .

كان والد الطفل الصغير ناظر مدرسة القرية . وقد أخبر ابنه أنه من المحال أن يزور طروادة ؛ إذ لايوجد فى الحقيقة مكان اسمه طروادة ، ولم يحدث قط شىء

اسمه الحرب الطروادية ، وأن هذه الأشياء لم توجد إلا فى خيال الشاعر اليونانى العظيم هومر .

وكان ناظر المدرسة كثيراً ما يقرأ لابنه أشعار إلياذة هومر عن الحرب بين طروادة واليونان . تلك الحرب التى ظل الناس من جميع شعوب العالم ، ولمدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً ، تستهويهم فيها قصص المحاربين ذوى الدروع الذهبية ، والعربات التى تجرها الخيول المسحورة ، والآلهة التى تستطيع أن تظهر فى أشكال آدمية . ولكن القصيدة فى نظره لم تكن سوى خرافة ، كما كان علماء التاريخ لايقرون أبداً وجود مدينة تسمى طروادة :

غير أن الصبى الصغير واسمه : هينريش شليمان ، رفض أن يتخلى عن حلمه ، وكان يحس أن المؤرخين على خطأ ، وأن طروادة قد وجدت فعلا ، وسوف يجدها يوماً ما ، ويثبت للعالم كله أن أشعار هومر الرائعة ، حقيقة لاخيال :

وكان كلما نظر إلى الصور فى كتابه ، ازداد تفكيره فى الحوادث التى حدثت منذ أزمان طويلة ، وعاودته قصة

اختطاف الفتى الرشيق باريس بن الملك بريام ملك طروادة ، لزوجة أحد نبلاء اليونان ، ويدعى منلاوس . وكانت هذه السيدة ، واسمها هيلين ، أجمل نساء عصرها . ويصف هومر إبحار سادة اليونان عبر بحر إيجه ، ليأخذوا بثأرهم من طروادة مدينة الأمير باريس ، ويقول إن قائدهم كان أجممنون ، ملك ميسيناى القوى .

كان هينريش شليمان يحب قراءة أخبار الحروب المثيرة بوجه خاص ، فأخذ يقرأ مرات ومرات كيف أن « آخيل » أشجع شجعان اليونان ، تحدى هكتور أمير طروادة فى مبارزة شخصية . ولبس آخيل الدرع الرائعة التى أعدها له أحد الآلهة ، وحينما رآه هكتور تقدم إليه بدرعه السحرية اللامعة تحت أشعة الشمس . ولكن قلبه كان قد امتلأ بالرعب فهرب ، وتبعه آخيل القوى ودار وراءه حول أسوار القلعة . وأخيراً اضطر هكتور لمواجهة اليونانى آخيل الذى قتله وربطه من عقبيه إلى عربته ، وجرّه على الأرض ، وعاد به إلى سفن اليونانيين .

ثم هزمت طروادة أخيراً بحيلة بارعة ماكرة . فعندما

أيقن اليونانيون أنهم لن يستطيعوا هدم أسوار المدينة ، فكروا فى عمل حصان ضخم من الخشب ، مفرغ من الداخل ، واختبأ فى جوف هذا الحصان عدد من أحسن محاربيهم . ثم تظاهر اليونانيون بالتخــلى عن الحصار وتركوا الحصان الخشبي خارج أبواب المدينة ذات مساء كهدية منهم . وفى الصباح التالى ظن أهل طروادة أن هذا بداية السلم ، وسروا لذلك وأخذوا الحصان الخشبي إلى داخل المدينة واحتفلوا به احتفالا مبهجاً فى المساء . وبينما هم نائمون تسلل المحاربون اليونانيون من داخل الحصان ، وفاجأوا أهل طروادة بأخذ المدينة .

ويقول شليمان أخيرا ، إنه كان حينما ينظر إلى صورة طروادة ، كان يخطر بباله أنه سوف يكشف فى يوم من الأيام تلك المدينة المجهولة . ليقل العلماء ما يشاءون من أن قصة طروادة لا تخرج عن كونها مجرد أسطورة : أما هو فلم يشك مطلقاً فى أن طروادة مدينة حقيقية ، واعتقد أن هكتور وباريس وبريام وأجممنون كانوا موجودين بلحمهم ودمهم ؛ ولن يستطيع أحد أن يزعزع هذه العقيدة من نفسه .



(شكل ٢٣) قناع أجممنون

ولم يقدّر لشليمان أن يزور اليونان قبل مضى تسعة وثلاثين عاما من تاريخ عيد الميلاد ذاك ، الذى كان حدثا هاما فى حياته ؛ ولكن حياته حتى ذلك الوقت ،

لم تكن بحاجة إلى المغامرات . لقد بدأ شليمان مفلسا ، واختار لنفسه أن يكون تاجراً . وفى خلال هذه السنوات مرّ فى سلسلة من التجارب المحزنة ، فقد ارتطمت به السفينة مرتين ، ونجا فيهما . ثم نجا بأعجوبة من زلزال سان فرانسسكو ، ثم تخفى فى زى حاج مسلم ، وقصد مدينة مكة ، ولو عرف أمره لتعرض للمخاطر .

وفى أثناء كل هذه المغامرات كان شليمان يعمل جاهداً ليعلم نفسه ، فتعلم اللغة اليونانية القديمة والحديثة ، كما تعلم سبع عشرة لغة أخرى . وقد علم نفسه بنفسه معظم هذه اللغات ، وكان غالباً ما يحسن اللغة الجديدة التى يتعلمها بعد ستة أسابيع فقط .

ونزل شليمان ، وهو فى السادسة والأربعين من عمره ، أرض بلاد اليونان لأول مرة فى حياته ، وذات يوم جلس فى قرية صغيرة يقرأ لأهلها بلغتهم ، بعضا من أشعار هومر . وكانت لحظة مثيرة بالنسبة لشليمان ، حتى إنه بكى ، وبكى معه أحفاد هؤلاء الأبطال القدماء .

وأخيرا رحل شليمان إلى البقعة التى قامت عليها يوما ما ، مدينة طروادة . وعلى الرغم من أن معظم العلماء وقتذاك كانوا لا يعتبرون طراودة سوى مدينة أسطورية ، إلا أن البعض منهم اعتقد فى وجود مدينة بهذا الاسم فيما مضى من الأيام . وظن هؤلاء أنه إذا صح اعتقادهم ذاك ، فالأرجح أنها كانت موجودة قرب قرية بونارباشى الحديثة .

وصمم شليمان على أن يعيد قراءة أبيات خاصة من الإلياذة ثم يختبر التل الذى يعلو قرية بونارباشى ، ليرى مدى اتفاق الوضع مع الوصف الموجود فى القصيدة . وسار شليمان ، كالشبح الصغير ، والكتاب فى يده ، ينظر إلى الأرض من خلال منظاره متتبعاً وصف هومر . كانت قلعة طروادة تقع فى وسط سهل كبير يبعد عن الشاطئ ، وعلى مسيرة بضع ساعات منه . وكان المحاربون اليونانيون يجيئون ويروحون من مكان المعركة إلى مرسى سفنهم . وكانوا أحيانا يقومون بهذه العملية عدة مرات فى اليوم الواحد . وبعناية تامة ، أخذ شليمان يقيس بخطاه المسافات



٢٤ – خريطة بلاد اليونان

من بونارباشي ، ويحسب الزمن الذى تستغرقه تلك الخطى .

ورأى شليمان أنه لو كان وصف هومر لليوم الأول من المعركة دقيقاً ، ولو كان موضع المعركة ، كما يقال ، فى بونارباشى ، لكان على المحاربين اليونانيين أن يسيروا مسافة اثنين وخمسين ميلا فى تسع ساعات ، وهذا مستحيل .

وعاد شليمان ثانية إلى الإلياذة يقرأ الجزء الخاص بفرار هكتور من آخيل : فقد قال هومر : إن بطل طروادة دار أثناء محاولته الفرار ، ثلاث مرات حول أسوار القلعة : ولكن لما حاول شليمان أن يعيد تمثيل هذا المنظر وجد أن عليه أن يزحف على يديه ورجليه ، بعض الوقت ، فوق طريق منحـــدر ، وفى اتجاه مضاد . وعلى هذا فلن يكون هكتور قد جرى بكل سرعته حول تل بونارباشى .

والاحتمالان القائمان للإجابة عن هذا المشكل هما : إما أن يكون هومر مخطئاً ، وإما أن طروادة القديمة لم تكن فى موضع بونارباشى الحديثة . ولم تكن هناك فرصة لشليمان أن يختار ، لأن هومر عنده لا يخطئ ، بل العلماء هم المخطئون .

وكان لا يزال هناك تل كبير آخر فى ذلك المكان ، وكان هذا التل الأخير أقرب إلى البحر نوعاً ؛ ويسمى حصارلك ومعناها « القصر » : وكانت قمة تل حصارلك مسطحة ومغطاة بقطع مكسورة من الفخار القديم .

واختبر شليمان انحدار ذلك التل . ورأى أن فى إمكان

هكتور أن يدور حوله بسهولة وبأقصى سرعة . هذا بالإضافة إلى أنه على مسيرة ساعتين ونصف ساعة من البحر ، مما يجعله أقرب من بونارباشى ، وإذن فمن المؤكد أن اليونانيين كانوا يستطيعون الذهاب إلى مكان المعركة والعودة إلى سفنهم ثانية .

وفكر شليمان وقدّر . وقرر أن مكان هذا التل يتفق مع وصف الإلياذة . واقتنع تماماً أن هذا المكان لابد أن يكون « طروادة القديمة » . والنتيجة . . أنه لن يستمر طويلا فى عمله كتاجر . فسوف يتخلص كلية من هـــذا العمل . ويوجه مستقبله وجهوده نحو تحقيق أحلام طفولته .

ولم يستطع التاجر ، الذى تحول إلى عالم آثار ، أن يحصل على تصريح للتنقيب فى تل حصارلك قبل عام ١٨٧٠ م . وفى خلال عامين من انتظار تحقيق هذا الإذن ، رأى شليمان أن الوقت قد حان للزواج . ولما كانت كل أحلامه مرتبطة باليونان ، فقد آثر أن تكون زوجته يونانية أيضاً . إن المسألة بالنسبة إليه مسألة إيمان ، وهو

يعتقد أن « لغة الآلهة » هى اللغة اليونانية وأنه لن يكون سعيداً إلا إذا عاش على أرض اليونان .

وكتب شليمان إلى أحد أصدقائه ، يسأله المعونة فى اختيار زوجة مناسبة له ، وقال إنها لابد أن تكون جميلة وصغيرة ، وأن تحب أشعار هومر .

ما أغرب الشروط التى يتطلبها زوج فى زوجته . ومع ذلك فقد وفق شليمان إلى الفتاة التى تتوافر فيها هذه الشروط . كانت صوفيا فتاة يونانية جميلة ، فى السابعة عشرة من عمرها محبة لأشعار هومر . وعاشا : هى وشليمان — وعمره ، إذ ذاك سبعة وأربعون عاماً — زوجين سعيدين إلى أن مات شليمان بعد ذلك بعشرين عاماً .

وفى عام ١٨٧٠ ، بدأ أول معول يقلب الأرض فى حصارلك . ووجد شليمان حائطاً رومانياً بالقرب من سطح الأرض ؛ ولكن هذا لم يكن يهمه كثيراً ، إذ أن اهتمامه كان ينحصر فى محاولة العثور على أسوار طروادة :

كان تل حصارلك الضخم يرتفع مائة قدم فوق

مستوى الوادى : والآن . . بماذا كوفئ شليمان بعد انتظاره السنين الطوال لتحقيق الآمال ؟ وأى شيء سوف يظفر به فى أعماق ذلك التل ؟

لقد استأجر تاجرنا السابق ، مائة رجل ، وزودهم بالمعاول والمجاريف . ولكن أين يبدأ تنقيبه عن مدينة طروادة الغنية ، الأسطورية ؟ قابلت شليمان نفس المشكلة التى قابلت تيلور ، حينما بدأ ينقب فى تل المقيّر بمدينة أور . فلم تكن هناك أساليب علمية تتبع فى التنقيب ، وكان شليمان نفسه هاوياً لا عالماً ، ولم تكن له قواعد ليسير عليها ، بل كان رائده الوحيد هو أشعار هومر .

صمم شليمان على حفر أخدود مستقيم ، عرضه مائة قدم فى قلب التل . وكان ينقل كل ما يكشفه بعيداً على عربات تجرها الثيران أو فوق ظهور الجمال . وحينما أعجزته قسوة الملاريا ، قامت مكانه زوجته صوفيا ، وأخذت توجه العمال وتعمل بينهم ثمانى ساعات يومياً .

لم يسفر الموسم الأول عن نتائج ذات قيمة ، فقد عثر على بعض أدوات حجرية ، وبعض قطع من الفخار

تزينها رسوم رءوس بومات ، وبعض الكتل الحجرية الكبيرة . ولكنه لم يعثر على شيء يشبه وصف هومر للمدينة العظيمة ، فلم يجد أبراج مراقبة ، ولا حوائط متينة ، ولا بوابات كبيرة .

وفى إبريل التالى بدأ هينريش شليمان وزوجته صوفيا يعملان ثانية بأمل جديد . فأخرجت المعاول أدوات حجرية أخرى ، وأنواعا من الفخار الردىء . ثم كشف ركن حائط كانت أحجاره مبنية بغير ملاط .

وقال شليمان : « جميل جداً أن تظفر يداى بالمدينة . . إنها لا بد أن تكون محفوظة كما هى » .

بدأ شليمان يزداد قلقا وارتباكا ، إذ وجد على ارتفاعات مختلفة أجزاء من جدران ومبان أخرى . وكان واضحاً أن جيلا وراء جيل كان يبنى فى موضع حصارلك . فقد تكوّن التل من مدينة فوق مدينة ، ومن طبقة فوق طبقة ، حتى أن شليمان عد منها ست طبقات منفصلة . لكن أى هذه الطبقات تكون طروادة التى ذكرها هومر ؟ وأين الدروع الضخمة وسيوف الحرب التى استخدمها المحاربون

القدماء ؟ وأين حلى النساء وجواهرهن ؟ وأين كنوز الملك بريام التى وصفها الشاعر بالتفصيل الدقيق ؟ وأين أبراج طروادة الضخمة ؟

لم تكن خمسة شهور من العمل الجاد كافية للكشف عن كل هذه الأشياء . فلم يظهر سوى قطع من الفخار أو الجدران ، ومن وقت لآخر كانوا يجدون بعض الأباريق الجنائزية ، أو الحراب النحاسية ، ومع ذلك فقد استمر شليمان يحفر ويحفر .

ولقد كتب يقول : « أنا سعيد كأنى ملك ، ما دمت أستطيع أن أتفرغ تماماً لتحقيق أملى العظيم ، ولن أرتاح حتى أتمم هذا العمل . . . »

وفى مايو عام ١٨٧٣ م بدأ الحفر من جديد فى الطبقة الثانية من قلب التل . وسمى شليمان هذه الطبقة : طروادة رقم ٢ . وظهرت له آثار حريق كبير فى كل مكان ، حين كشف عن بوابتين ضخمتين وجدران سميكة هائلة ، لوّحتها النيران .

وأخيراً خالط شليمان إحساس بالعثور على طروادة وحوائطها ؛ فالبناء الضخم القريب منه لا بد أن يكون قصر الملك بريام ، ولا بد أن تكون هذه هى القلعة التى وصفتها الإلياذة .

اهتز كيان شليمان ؛ فقد كانت هذه أروع لحظة فى حياته . إنه استطاع أن يحيل الخرافة إلى حقيقة . وأن يخرج أبطال وبطلات هومر من صفحات الإلياذة إلى مسرح الحياة ، نساء ورجالا حقيقيين .

وكان استياؤه لشيء واحد فقط ، وهو أن هومر وصف كنوزا رائعة لم يصادفها شليمان . كما أن المدينة لم تكن من الكبر بالقدر الذى توقعه . وأحس شليمان أن هومر قد بالغ قليلا ، ليجعل قصته أكثر روعة . لكن على أية حال يكفى أن العالم عرف الآن أن طروادة مدينة حقيقية وموجودة . كان من المقرر أن يتوقف العمل فى منتصف يونيه سنة ١٨٧٣ م ، حين شعر شليمان أن مهمته قد انتهت .

وفى الرابع عشر من يونيه كان هينريش وصوفيا

يقفان جنباً إلى جنب بجوار «قصر بريام» يراقبان جموع العمال وهم يحفرون على عمق ثمان وعشرين قدما تحت مستوى سطح الأرض . ولم يكن أحد يتوقع الظفر بشىء هام فى ذلك اليوم الأخير . إذ الحقيقة أن وقوفهما لم يعد أن يكون مراقبة مألوفة للعمال .

وفجأة . . حدق شليمان فى شىء نحاسى لم يتم رفع التراب عنه بعد . ولمح بجواره بريق شىء آخر ؛ شىء وسط أتربة الخندق يعكس أشعة الشمس . ولم ير أحد ما رآه . وفكر فى الحال فى كنوز طروادة : ترى . . أيكون هذا لمعان ذهبها ؟

وأمر شليمان صوفيا أن تذهب وتنادى العمال بالكلمة التركية التى تعنى حلول وقت الراحة ، وهمس فى أذنها قائلا : «قولى لهم إن اليوم عيد ميلادى ، وإننى لم أتذكر ذلك إلا الآن فقط . وإن كل واحد منهم سوف ينال أجر يومه كاملا دون أن يعمل» :

سر الرجال لهذه الإجازة غير المنتظرة ، وأسرعوا جميعاً إلى مغادرة العمل .

وقال هينريش لزوجته : « اذهبي أنت سريعا وأحضري شالك الأحمر » وبدأ هو يحفر بنفسه . كان عليه أن يرفع طبقة من الرماد الأحمر ، سمكها خمس أقدام ، وأن يحطم بمعوله حائطاً لا يقل عن ذلك سمكا . ورغم أنه لم يكن فى حالة صحية تمكنه مما يريد ، إلا أن الانفعال أكسبه كثيراً من القوة .

وأخيراً ، وبسكين كبيرة ، أخذ يستخرج من التراب أشياء ذهبية ، الواحد بعد الآخر ، وأخفى هذه الأشياء بسرعة فى شال صوفيا دون أن يفحصها . وعاد الاثنان إلى كوخهما وأغلقا عليهما بابه .

وهناك فى الأمان ، بعيداً عن الأنظار ، أخرجا الكنز الذهبي ، وإذا هو يحتوى على تيجان وخواتم وعقود وأقراط وأزرار ، كلها من الذهب ، وكان عددها فى الحقيقة يقرب من تسعة آلاف قطعة .

لا بد أن هذا هو كنز بريام ، الذى كان هومر وحده هو الذى قاد شليمان إلى مكانه . وهكذا عثر فى

اليوم الأخير من موسم الحفر على الكنز الأسطورى ، وأمسك بيديه الذهب الذى حلم به منذ أكثر من خمسين سنة . وحينما لف رأس صوفيا بعصابة ذهبية وألبسها العقود والأقراط ، أحس بكامل شعوره أنها حلى فتاة أخرى يونانية جميلة هى هيلين ، التى نشبت من أجلها حرب طروادة .

قد يبدو غريبا أن نصدّق أن هاويا مثل شليمان ، يعثر على أشياء كثيرة قال العلماء باستحالة وجودها . الواقع أن الإيمان وحده هو الذى أمكنه أن يبرهن على أخطائهم ، ومع ذلك فإنه لم يقتنع بالاكتفاء بما وصل إليه .

لقد فكر فى الوقت ذاته فى ميسينى ، مقر أجممنون . ففى ملحمة هومر الثانية ، وهى ذلك المجلد الضخم من الشعر الذى يسمى الأوديسة ، أطلق الشاعر على تلك المدينة اسم « المدينة الذهبية » وعدّها أقوى مدن بلاد اليونان . وتذكّر شليمان كيف تصف الملحمة عودة المحاربين اليونانيين منتصرين من رحلتهم ، التى قرر الآلهة أن تستمر عشر سنوات . وعندما وصل أجممنون الملك إلى بيته ، وجد

أن زوجته وقعت فى حب رجل آخر . وفى المأدبة التى أقيمت لتكريم المحاربين ، قتلت الملكة وعشيقها ، الملك أجممنون . ويصف هومر كيف دفنت جثث القتلى من المحاربين اليونانيين فى ميسينى ، ولهذا صمم شليمان على أن يكشف عن مقابرهم حينذاك ، وأن ينقب عن كنوز ميسينى أيضاً .

كانت ميسينى قلعة كبيرة لا تزال أسوارها الضخمة واقفة كصدى خافت لأمجاد الماضى . وكان الوصول فى الماضى إلى ما وراء هذه الأسوار عن طريق بوابة حجرية ضخمة يعلوها تمثال أسد ، لايزال يلوح فى الأفق فوق خرائبها . وتقول الأساطير إن بانى هذه الأسوار ، عملاق ضخم بعين واحـــدة يسمى سيكلوبس . أما أحجارها فكبيرة جداً ، حتى إن الرجل العادى لا يستطيع رفعها بمفرده .

حصل شليمان من الحكومة اليونانية على تصريح بالحفر والتنقيب عن مقابر ميسينى القديمة ، ولكن كان عليه أن ينقب داخل أسوار المدينة فقط ، أى حيث نقب

غيره من قبل . وسخر الأثريون كثيراً ، إذ جاء التصريح على هذا النحو ، وظنوه خدعة وقع فيها شليمان ، واعتقدوا أن ذلك الهاوى سوف يضيع وقته وماله إذا ما حفر فى الموضع المقرر . وترجع سخرية الأثريين من شليمان إلى اعتقادهم أن المقابر تقع خارج أسوار المدينة .

ولكن شليمان يخالف العلماء فى ذلك ، فقد قرر منذ سنوات أن المقابر لا يمكن أن تكون إلا داخل الأسوار . يؤيده فى ذلك أنه قرأ لأحد الرحالة اليونانيين الأقدمين ، قصة يؤخذ منها أن المقابر كانت داخل الأسوار . ووضع شليمان ثقته فى كاتب يونانى ، مثلما وضع ثقته من قبل فى هومر ، ولم يحفل بعدد الأثريين الذين أخفقوا فى البحث عن هذه المقابر ، فلسوف يعثر هو وصوفيا عليها .

بدأ شليمان وزوجته العمل فى يوليه سنة ١٨٧٦ م تحت شمس الصيف المحرقة . واستمر الحفر شهوراً فى أكوام من الردم دون الوصول إلى نتيجة .

وفى أحد الأيام كانوا يعملون بجوار بوابة الأسد ، وكان ذلك فى ديسمبر ، وفجأة انحنت صوفيا لتلتقط

شيئاً من التراب : إنه خاتم ذهبي . وفى الحال سرح زوجها العمال ، فقد عثرا على المقابر الملكية .

واستمرت صوفيا خمسة وعشرين يوماً راكعة فى القاذورات ، وهى تنبش بالسكين الأشياء الدفينة ؛ وأخرجت إلى النور هيكلا عظمياًوراء آخر. وكان اللحم لا يزال عالقاً ببعضها ، ووجدت مع هذا بعض أشياء من الذهب : لقد وجدت تاجاً تتدلى منـــه ست وثلاثون ورقة من الذهب ، وكؤوساً وأزراراً وصولجانات وسيوفاً : وكانت عظام النساء مغطاة بالجواهر والحـــلى الذهبية . وكان أروع ما فيها هو أقنعة الموتى التى صنعوها ، بحيث تشبه وجوه الأشخاص الذين يلبسونها . وقد وضعت الأقنعة والصدارى الذهبية لتقى الميت شر الأرواح الخبيثة .

وبدت رومانتيكية شليمان فى أجلى صورة ، حين استثاره أحد هذه الأقنعة ، واعتقد أنه يشبه إلى حد كبير القناع الذى كان يلبسه أجممنون ، والذى تصوره به شليمان . وهناك فى البرد وتحت وابل المطر ، أخذ هينريش يقبل « قناع أجممنون » .

وبعد سنتين ، رزق شليمان بطفل ، ولم يجد أمامه سوى اسم واحد يمكن أن يسميه به ، وذلك الاسم ، بطبيعة الحال ، هو أجممنون .

وقام جدل بين الأثريين حول كشوف شليمان فى طروادة وميسينى . وكانت فرصة انتهزها الرجل ليعلّم نفسه . لقد صمم على أن يدرس ويزيد معلوماته عن الآثار ليستطيع الرد على العلماء وإقناعهم . وحينما قرر أن يعــاود التنقيب فى طروادة عام ١٨٧٩ م ، طلب من مهندس معمارى يدعى ولهلم دورپفلت أن يساعده على صلب الجدران والمبانى المتداعية الواحد فوق الآخر .

وسرعان ما عرف الأثريون أن تل حصارلك يتكون من تسع طبقات بدلا من ست . وأن الطبقة الثانية كانت أقدم بكثير من طروادة التى وصفها هومر . وعلى ذلك فالكنز الذى عثر عليه شليمان لم يكن كنز الملك بريام بحال من الأحوال . ولا بد أنه كان لملك آخر ، حكم قبل أن يختطف الأمير باريس الأميرة هيلين بألف سنة .

وقد وقع هذا القرار موقعاً سيئاً من نفس شليمان دون شك . لكنه كان الرجل الذى سرعان ما يعترف ويصحح أخطاءه ؛ حتى لقد كتب يقول : « وددت لو أنى كنت أستطيع أن أبرهن أن هومر كان شاهد عيان لحرب طروادة ، ولكن يؤسفنى أنى عجزت عن ذلك » .

ولم يتمكن دوربفلت من إثبات موضع طروادة هومر الواردة فى الإلياذة إلا بعد وفاة شليمان بثلاث سنوات ؛ إذ أعلن فى عام ١٨٩٣ م أنها تأتى فى الطبقة السادسة من تل حصارلك ، وأن هومر الذى عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد ، لا يمكن أن يكون قد شاهد طروادة التى كتب عنها . وأن قصصه الرائعة تناولت أحداثاً أخذت مكانها فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، أى قبل مولد هومر نفسه بثلاثمائة سنة . وقد أخذ هومر الأغانى من أفواه المنشدين المتجولين ، الذين تناقلوها جيلا بعد جيل . وصاغ هو ذلك كله فى ملحمة شعرية رائعة .

وكذلك ثبت أن مقابر ميسينى ، ترجع إلى فترة سابقة للفترة التى أرجعها إليها شليمان . والقناع الذى ظنه

خطأ « قناع أجممنون الذهبي » كان يغطى وجه إحدى الجثث الملكية التى ترجع إلى أربعمائة سنة قبل مقتل أجممنون .

ثم جمدت الحياة من حول تل حصارلك بعد آخر رحلة قام بها شليمان ؛ مدة تقرب من ستين عاماً . وبقيت خرائبه وأسواره ومنازله المتداعية ، مكشوفة لأشعة الشمس الذهبية الدافئة . وفى عام ١٩٣٢ ، قررت جامعة سنسناتى أن تقوم بحفريات هناك هى الأخرى ، محاولة تأريخ الطبقات المختلفة . وكان أمل القائمين بهذه الحفريات أن يعلموا المزيد عن الناس الذين عاشوا هنالك منذ قرون كثيرة جداً .

استمر العمل سبعة فصول تحت إشرف كارل بليجن ، وكان علم الآثار ودراساته قد تقدم كثيراً عما كان عليه أيام شليمان . والنتائج التى حصلت عليها هذه البعثة الأخيرة ، درستها فئات متباينة التخصص من الأثريين . فكان هناك المختصون فى علم النميات (النقود القديمة) وفى الخزف ، وفى الهياكل العظمية الآدمية ، وفى حياة

النبات والحيوان ، وفى التربة والصخور ؛ هذا إلى جانب الاستعانة بالمصورين والمهندسين . وبذلت الجهود الممكنة للحصول على أكبر قدر من المعلومات عن هذا المكان القديم . وظهر لهذا الفريق من المنقّبين أن شليمان قد خرب بعض المخلفات أثناء جهوده التى قام بها من أجل كشف قلعة بريام . ويرجع هذا إلى أنه لم تكن توجد فى أيام شليمان – وكذا الحال مع تيلور فى أور – قواعد علمية للتنقيب عن الآثار .

ولم يستطع بليجن وزملاؤه من العلماء ، أن يؤرخوا الطبقات المختلفة بالضبط . ولكنهم وجدوا أن الإنسان عاش فى حصارلك منذ حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ، ويمكن أن نقول إن الطبقة السفلى ترجع فى تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق . م ، وإنها كانت حصنا ملكيا يحميه سور . ومعظم أدوات ذلك العصر من الحجر أو العظم ، والقليل منها فقط كان مصنوعاً من النحاس الأحمر ، وأن طروادة رقم ١ قد خربتها النيران .

أما طروادة رقم ٢ فكانت عبارة عن الطبقة المحترقة التى عثر فيها شليمان على كنوز بريام ، وقد صان معظم هذه الطبقة ، أنها غطيت بطبقة أخرى من الرماد ؛ وذلك مثلما حفظت النيران الألواح الطينية التى كانت فى قصر الملك فى كنوسة بجزيرة كريت .

وعاش سكان طروادة رقم ٣ فى مدينة ، شوارعها ضيقة ، مبنية فوق خرائب المدينة المحترقة ، أما نساؤها فكن ربات بيوت مهملات ؛ إذ أنهن تركن أرضية منازلهن مملوءة بالعظام والفضلات والقواقع وبقايا الفخار المكسور ، فإذا ما أصبحت أرضية المنازل غير منتظمة ، اضطر أزواجهن إلى وضع طبقة أخرى نظيفة من الطمى فوق الفضلات .

ولما تكرر هذا العمل مرات عديدة ، ارتفع مستوى الأرضية كثيراً بالنسبة للسقف . وحتى لا ترتطم رءوس الناس بالأسقف ، صار لزاما عليهم أن يرفعوا السقف

كله : ولاحظ الأثريون وجود هذه العملية فى معظم المنازل .

أما زوجات سكان الطبقة الرابعة أو طروادة رقم ٤ ، فلا بد أنهن كن أول من أجاد فن خبز العيش ؛ فقد كانت مطابخهن تحتوى على أفران ذات قباب ، لم يرها الأثريون فى الطبقات الأخرى .

أما مدينة الطبقة الخامسة ، فكانت أكبر من مدن الطبقات الأربع الأولى
تماما من الفضلات ، ها
البرونز . وقد خربت طروادة رقم ٥ بأيدى أعدائها ، ويحتمل أنهم هاجموها من على ظهور الخيل .

أما الطبقة التالية ، فهى الطبقة التى أطلق عليها دوريفلت اسم : « طروادة هومر » . وكان سمك أسوار القلعة ست عشرة قدما ، الأمر الذى يتفق وما ورد فى الإلياذة . ويحتمل أن كان سكانها هم القادمين

الجدد على ظهور الخيـــل ، الذين خربوا طروادة الخامسة .

ويعتقد بليجن أن طروادة السادسة لم تحرق كما ظن دورپفلت ، بل إن زلزالا خرب الحصن بعد ١٣٠٠ ق . م بقليل ، ثم بنيت طروادة السابعة فوق أطلال سابقتها .

وبعد ذلك بقرن من الزمان ، أى حـــوالى عام ١٢٠٠ ق . م ، خربت النار طروادة السابعة ، وارتضى بعض العلماء هذا التاريخ ليكون تاريخاً لسقوط طروادة ، ومن أجل هـــذا اعتقد بليجن أن الطبقة السابعة هى حقيقة طروادة الهومرية . ولكن بما أنه من المتعذر أن نحدد على وجه الدقة تاريخ طبقة ما ؛ فمن المتعـــذر تبعاً ، أن نحدد أى الرجلين على صواب : دورپفلت أم بليجن .

وكان سكان الطبقة الثامنة هم أول من استخدم الأدوات المصنوعة من الحديد ، وبهم أيضاً ينتهى

عصر البرونز فى الحضارة اليونانية . ثم تأتى الطبقة الأخيرة أو العليا ، وهذه ترجع إلى العصر الرومانى .

ومنذ عام ١٩٣٨ ، والصمت يخيم على تل حصارلك ، حين كفت معاول الأثريين عن البحث فى أعمـــاقه ، وإن كانت قـــد تمت عدة كشوف أخرى فى بعض الأماكن القديمة الأخرى .

والآن . . . فإن الفضل كل الفضل يرجع إلى هذا الهاوى الخيالى النزعة ، فى إتاحة الفرصة للكشف عن أسرار تل حصارلك . ولو أن شليمان نظر كالعلماء الآخرين إلى قصر هومر على أنها مجرد أساطير ، لما أنفق ذلك الوقت الطويل ، ولما بذل الجهد والمال فى البحث عن قلعة بريام ، ولما عرضت كنوز طروادة وميسينى الذهبية الرائعة فى خزائن المتاحف ، ليراها العالم كله ، ولبقيت للآن مختفية تحت أنقاض القرون الخالية .

والواقع أنه ليس من المهم أبداً أن يعتقد شليمان ــ خطأ ــ أن الطبقة الثانية هى طروادة الهومرية ، أو

أننا نحن لانستطيع أن نؤكد أنها الطبقة السادسة ، أو السابعة ؛ إذ المهم هو أن الصبى هينريش شليمان أحب قصص هومر ، وأن إيمانه بها لم يتزعزع حين كبرت سنّه ، وبلغ مبلغ الرجال .

إن شكوك العلماء لم يكن لها أى أثر ، أما إيمان شليمان ، فإنه هو الذى أشعل السراج الذى بدد الظلام المحيط بعصر البطولات اليونانية .

الفصل الثامن

المعول ما يزال يضرب الأرض

تنتهى صفحات هذا الكتاب ، ولا تنتهى مغامرات علماء الآثار . إذ أننا لم نتناول هنا سوى القليل من أخبار كشوفهم العجيبة .

فى الدنمارك . . . كشف الأثريون عن جسم احد المحاربين من عصر البرونز ، وكان يرقـــد فى تابوت مصنوع من جذع شجرة مفرغة ، وحفظ هذا المرقد المسامى جسم المحارب ، كما حفظ ملابسه المصنوعة من الصوف والجلد .

وفى النرويج كشفوا عن مدفن لإحدى ملكات الفايكنج ، مدفونة إلى جانب سفينتها الضخمة .

وفى أدغال سيلان . . . وجدوا معابد غريبة . ووجدوا فى آشور . . . ثيراناً ضخمة ذات أجنحة ورءوس آدمية . وفى فرنسا . . . اكتشفوا رسوماً

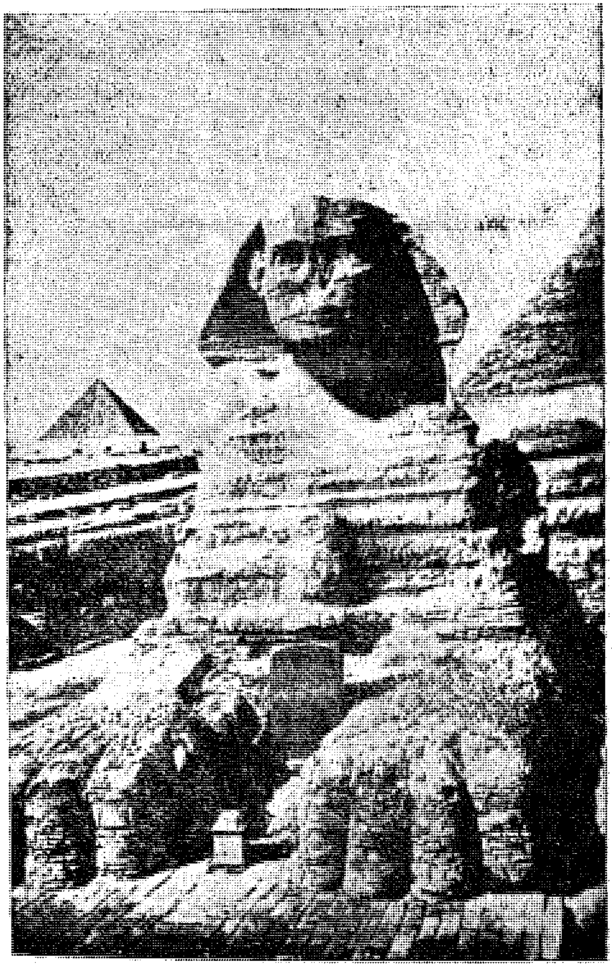
جميلة فى مغارة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، أى منذ ١٦٠٠٠ سنة .

وفى مغارة قريبة من البحـــر الميت ... كشف الأثريون حديثاً لفائف من الجلد وبقايا من النحاس الأحمر . ونقشت على هذه اللفائف كتابات باللغــة العبرية القديمة . ويحاول العلماء صيانة وترجمة هذا الأثر الذى يعتبر أقدم نص ظهر من « العهد القديم » .

وتستمر قائمة الكشوف فى الازدياد ، لأن علماء الآثار يعملون فى مختلف أنحاء العالم ، ليشيدوا جسراً يصل الماضى بالحاضر .

ولا يخفى أن الاختراعات الحديثة تسهل عمل الأثريين أكثر من ذى قبل . وما الصور التى تؤخذ من الجو ، إلاّ أحد الأمثلة على ذلك . والجدير بالنظر أن أشياء كثيرة تظهر فى الصور المأخوذة من الجو ، على حين لا نستطيع أن نلاحظها ، ونحن على الأرض .

وتكون الأتربة الموجودة فوق المقبرة أغنى عادة من



(شكل ٢٥) أبو الهول . . . أبو الأسرار

الأتربة المحيطة بها ، ولهذا يكون لون الحشائش فوقها أكثر اخضراراً منه حولها . وقد يكون الاختلاف طفيفا جداً لدرجة أن عيوننا لا تستطيع إدراكه ، ولكن فى الصورة المأخوذة من الجو تكون الحشائش الأكثر اخضرارا ، أكثر ظلا . ويستطيع عالم الآثار أن يستفيد من هذا الدليل ، فيقرر أين يبدأ الحفر بحثا وراء مقبرة قديمة ، بدل أن يضيّع الوقت فى البحث عنها فى المكان كله .

واليوم ، نرى علماء الآثار وقد سدوا كثيراً من الثغرات فى المنظور العام لصورة الماضى . وأصبحت جميع المعارف التى ظهرت فى جهات متعددة من العالم ؛ كلها فى متناول الباحث الحديث . إنه يستطيع بسهولة أن يتبادل الصور والمعلومات ، ويناقش المقاييس مع العلماء الآخرين ، حتى لو كانوا فى نصف الكرة الآخر ؛ وبمقارنة النتائج التى وصل إليها ، بالنتائج التى وصل إليها غيره من العلماء فى الماضى والحاضر ، فإنه يستطيع أن يضيف إلى معلوماته الكثير من المعارف .

ويوجد الآن فرع جديد من علم الآثار لا يزال فى مرحلة الطفولة . وهذا هو علم آثار ما تحت البحر .

فالمعدات الحربية الحديثة للغطس أتاحت لنا أن نكشف قاع المحيط ، على حين لم نكن نستطيع أن نفعل ذلك من قبل . والمعروف أنه توجد تحت الأمواج زوارق رومانية ، وسفن غارقة منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة . ولسوف تعطى حمولتها ، معلومات كثيرة للمؤرخين عن عن النقل البحرى والتجارة فى العالم القديم .

وعلم آثار ما تحت الماء يجرى كثيراً على الألسنة اليوم ، وهو الآن فى المرتبة التى كان عليها علم الآثار فوق الأرض منذ قرن من الزمان . وربما يستطيع الغواصون فى أعماق البحار أن يرفعوا — بعد ألف عام من الآن — حطام إحدى البواخر المحيطية ، ليعرفوا شيئاً عن عالمنا فى القرن العشرين .

ولعل أهم تطور فى علم الآثار اليوم هو الطريقة الحديثة فى التأريخ ، التى ابتكرها الدكتور ويلارد . ف . ليبى الأستاذ بجامعة شيكاجو . وتسمى طريقة الكربون ١٤ للتأريخ ؛ وإليك مجملها :

يعرف الدكتور ليبي أن كل الأحياء الحيوانية والنباتية تحتوى على نوع معين من الكربون ، يسمى كربون ١٤ ، وهذا الكربون ذو نشاط إشعاعى . وطالما كان النبات أو الحيوان على قيد الحيـــاة ، فإنه يكتسب كربون ١٤ هذا . وبمجرد أن يموت يبدأ يفقد كربون ١٤ ، ولكن ببطء شديد .

وبعد مضى ٥٥٦٨ سنة ، يكون النبات أو الحيوان قد فقد نصف الكمية التى امتصها من هذا الكربون ، قبل أن يذوى أو يموت ، ثم يفقد النصف الباقى بعد مضى ٥٥٦٨ سنة أخرى . وتستمر هذه العملية بطريقة غير ملحوظة .

ويمكن قياس كمية الكربون ١٤ الباقية بوساطة جهاز يسمى عداد جايجر . وتدل عدد الفرقعات التى تصدر من الجهاز على كمية الكربون ١٤ التى لا يزال يحتفظ بها النبات أو الحيوان .

وعلى سبيل المثال ، إننا لو فرضنا أن جذع شجرة

قديمة يحدث عدداً من الفرقعات ، يساوى نصف العدد الذى يحدثه جذع شجرة مقطوعة حديثاً ، فمعنى هذا أن الشجرة القديمة عمرها ٥٥٦٨ سنة ، لأن هذه هى المدة التى تقضيها بعد وفاتها ، لتفقد نصف الكمية التى تحتويها من الكربون ١٤ .

وللتأكد من صحة هذه الطريقة ، أرسل علماء الآثار إلى الدكتور ليبى فى أول الأمر عينات من الأشياء التى يعرفون تاريخها ، ليروا أكانت نتائج عداد جايجر تتفق مع الحقائق المعروفة أم لا .

وكان أول هذه العينات التى أرسلت ، قطعة خشب مأخوذة من مقبرة مصرية ؛ فبرهنت الطريقة على صحتها ، مع احتمال حدوث خطأ ، تقدر نسبته بحوالى ١٠ ٪ .

ثم أرسلوا أشياء غير معروفة التاريخ ، فأرسلوا قطعة من نبات كان مشتعلا فى موقد قديم بمغارة فى فرنسا ، وأظهر جهاز جايجر أن النار كانت مشتعلة فى النبات منذ حوالى ١٥٥١٣ سنة . كما أظهر الجهاز أن أصدافاً عثر عليها بإحدى مدن العراق ، يقدر عمرها بحوالى ٦٧٠٧ سنين ..

ومنذ ذلك الوقت ، أمكن تأريخ أشياء كثيرة أخرى بهذه الطريقة ، مثل اللفائف التى عثر عليها قرب البحر الميت .

وكان الدكتور ليبى فى البداية هو الوحيد الذى يستطيع اختبار آلاف العينات المرسلة إليه من جميع أنحاء العالم . أما الآن فتوجد أماكن كثيرة أخرى بالولايات المتحدة وأوربا ، يمكنها القيام بهذا العمل الهـام . ويستطيع الأثريون اليوم أن يحددوا التاريخ التقريبى لأى شىء كان حياً يوماً ما .

وكلما تعلمنا شيئاً عن أجدادنا القدماء ، ازداد شعورنا بالفخر والتواضع معا . ويأتى شعورنا بالفخر لأن هؤلاء الذين اعتمد عالمنا الحديث على ابتكاراتهم الأولى اعتمادا كبيراً — هم حقا أقرباؤنا الأقدمون . أما شعورنا بالتواضع ، فإنما ينبع من تفكيرنا فيما ابتكرته أيديهم ، قبل أن نولد نحن بقرون عديدة .

ويجب أن نتذكر أن البشرية لم تسلك طريقاً واحدة مستقيمة أثناء سيرها ، وإنما كانت ثمة ارتفاعات

وانخفاضات كبيرة خلال التاريخ . ومع هذا « فالحديث » ليس أفضل من « القديم » دائما .

فلقد بنى المينويون فى كريت قوة بحرية عظيمة ، وأبحروا بشجاعة بين شعوب العالم القديم . وحينما زالت دولتهم ، فإن أحدا لم يسيطر على البحر ، حتى مجىء الفينيقيين بعدهم بعدّة قرون .

وبعد حضارتى طروادة وميسينى العظيمتين ، وما خلفتاه من كنوز ذهبية ، فإن شعوب اليونان سارت فى طريق متخلفة لمدة آلاف السنين . ولم تعد لمبانيهم وأشعارهم عظمتها وروعتها إلا فى العصر الذهبى لبلاد اليونان نفسها .

وفى أمريكا الجنوبية كان فن وهندسة شعب الأحجار الكبيرة ، أجمل بكثير من فن الأنكا الذين جاءوا بعدهم : وهكذا الأمثلة .

وقد حدثت فترات التخلف هذه خلال العصور مرات ومرات ، فيرقى الإنسان سلم المجد إلى قمته

ليهبط من جديد إلى أسفله . وبعد مدة من الزمن يعاود الصعود ثانية إلى قمة أخرى ، وهكذا .

ومن كل هذا الماضى الطويل ، يتكون أساس عالمنا الحديث . ولا نستطيع أن نفصل أنفسنا عن هؤلاء القدماء ، الذين ندين لهم بالشيء الكثير . وإن ما نحن عليه اليوم ما هو إلا بعض مما حققه جميع الناس الذين عاشوا قبلنا . وهؤلاء الأجداد يكوّنون جزءاً من كياننا اليوم ، وجزءاً مما سنكون عليه فى المستقبل . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نعرف أنفسنا ، دون أن نعرفهم أيضاً .

إن علماء الآثار يكشفون بمعاولهم عن تراث الماضى . وهم حين يحفرون ، يعلون فى الحقيقة بناء المعرفة فى حاضرنا ، وينيرون الطريق أمام مستقبلنا .